أيلول

_1_

كان جيران كنط يضبطون ساعاتهم على دقَّة موعده في إخراج كلبه للنزهة. هكذا، يحدث مع جيرانها حين تُنزل كلبها إلى أسفل البناية التي تسكن إحدى شققها ، في تمام الساعة الخامسة من بعد ظهر كلّ يوم، كي يركض ويلعب مع الأطفال الصغار الذين يتوافدون من شققهم لملاقاته والركض واللعب معه وكلّهم ينادونه بأعلى أصواتهم:" ريكو... ريكو". يلعب ريكو مع الصغار حوالى النصف ساعة، وهي تمضي هذا الوقت بالتحدُّث مع الجارات اللواتي يخرجن من بيوتهنَّ لمراقبة أطفالهنَّ . ينتهي وقت النزهة، تنادي كلبها وتعود معه إلى شقّتها وصيحات الأطفال ترافقها مطالبين بالمزيد من اللعب مع كلبها الأليف، وهي تتجاهلهم، تقفل

باب المدخل بوجههم، وتصعد إلى بيتها من دون أن يعلق في ذهنها أيُّ شيءٍ ممَّا سمعته من ثرثرات الجارات. تعود إلى ذاتها وعالمها وعاداتها من قراءة ومتابعة برامج تلفيزيونية ومخابرات عبر الهاتف أو عبر الحاسوب الذي يصلها بواسطة ال"سكايب" بأخيها في المهجر، حيث تمضي معه بعض الوقت قبل أن تقفل الخطّ وفي قلبها غصّة بسبب اغترابه حتى ولو سوَّغتْ له ذلك حين تُعيد والتفكير بسوء أحوالنا نحن في لبنان وعلى كلّ الأصعدة!

هذا البرنامج اليومي اعتادت عليه بعد أن أحيلت إلى التقاعد من المهنة التي مارستها لأكثر من ثلاثين سنة في إحدى مؤسّسات الدولة، لكنّه لم يكن منتظماً إلَّا في فصل الصيف حيث الطقس يساعد على تأمينه. أمَّا في فصل الشتاء، فلها عادات أخرى حيث تنجرف أكثر في أجواء الكتابة التي انكبَّت عليها لسنوات عديدة. وقد نشرت، حتى ذلك الصيف، كمّاً لا بأس به من الكتب والمقالات والأبحاث و... وبخاصة الرواية. لكنْ بعد نشر روايتها الأخيرة منذ أكثر من سنة ،بعد تقاعدها، حاولت أن ترتاح وتستمتع بالكسل، ونجحت في ممارسته كل تلك الفترة . هل كانت فعلاً تستمتع بالكسل كما كانت تصرّح؟ مَن يتمكّن من الغور في أعماقها يدرك أنّها كانت تكذب على نفسها قبل أن تكذب على الآخرين؛ فهناك سوسة تنخر في داخلها وتؤرِّق عليها عيشها، وهي تكابر. والمكابرة دليل عجز ما كانت تقوى على الاعتراف به. يسألها الأصحاب:"ماذا تكتبين الآن؟" وتجيبهم وهي تدرك

أنها تمارس الكسل وتستمتع به. تجيبهم بذلك وهي تدرك تماماً أنها تمر بمرحلة قحط فكري لا تودّ الاعتراف به حتى أمام ذاتها. لكن بعد مرور تلك السنة التي كانت سمتها المكابرة الكاذبة عادت إلى ذاتها تبحث عن موضوعٍ لرواية، وطال بحثها إلى درجة اليأس من إمكانية الكتابة من جديد. تقبّلت الوضع بمرارة داخلية قاسية وبلامبالاة ظاهريّة كاذبة، والسوسة تنخر في تجاويف دواخلها إلى درجة أنها باتت تطاول حدود جلدها الخارجي. عضّت على ألمها وتابعت حياتها كأية "ست بيت" تهتمّ بنظافة بيتها، وشراء أغراضها من السوبر ماركات، ومتابعة فواتير الكهرباء والماء والهواتف وملاحقة السنكري والكهربجي وغيرهما. وما ساهم في ذلك، تلك الفترة، هو ذهاب خادمتها السيريلنكيّة التي أمضت في بيتها ومعها أكثر من خمس عشرة سنة.

كان لذهاب "جوها" أثر كبير عليها إذ إنها شعرت بالضياع في الفترة الأولى هي التي كانت تتّكل كلياً على خادمتها وفي جميع المجالات من تنظيف وترتيب أغراض وحتى شرائها أحياناً. كانت "جوها" تعرف أكثر منها بكلّ حاجات البيت وترتيبه فيما بدت هي كمن يقيم في فندق حيث كلّ الأمور مؤمّنة! بعد سفرها المفاجئ عائدة إلى بلادها، هذا السفر، هذا الذي أتى مفاجئا شعرت بالضياع لفترة قبل أن تستعيد إمساكها بكل الأمور. لكنّ ذلك أبعدها عن جوّها المألوف من قراءة وكتابة وما إلى ذلك. لكنها استمرأت الأمر وغاصت في التفاصيل التي طالما كانت

بعيدة عنها كلّ البعد ، والأهم من كل ذلك، بدأت تهتمّ بالصبحيّات واحتساء القهوة مع بعض الصديقات الجديدات. عاشت نمطاً لم تألفه طوال حياتها. تناست كل ما كانت قد وصلت إليه من علم ومركز ونضال وغيرها لتغوص في العادي جداً، كأيّ "امرأة" أميَّة أو شبه متعلّمة، لا تهتمّ إلّا بمنظرها وتأنقها وزياراتها ،وبالقيل والقال وكلّ التفاهات التي كانت تمجّها من قبل. باتت "امرأة" عاديّة إلى درجة أنها نسيت، أو كادت أن تنسى، المصطلح الذي توصلت إلى نحته وتبنيه وهو "إنسى" بدل مصطلح "امرأة". هل كانت مرحلة نكوص تقصّدتها ،أم أنَّ الأيام كانت تنتقم منها ومن تجبّرها وسيرها ضد المألوف طوال الفترة السابقة؟ لكن المهمّ هو أنها كانت واعية لما تقوم به، وتمنح نفسها فرصة استرخاء لم تنعم بها طوال حياتها السابقة. لكنْ إلى متى؟

دامت هذه الحالة لأكثر من سنة قبل أن يأتي الفَرَج وتعود إلى لملمة شتاتها والتعرّف على ذاتها التي افتقدتها كل تلك المرحلة، سنة مخاض فيه المراحل السهلة الكسولة والاسترخاء والانجراف وراء كل التفاهات والفراغ الذي ينسي من يقع فيه كلّ شيء، حتى وزنه، وفيه مراحل صعبة وهي تلك التي تنخع الضمير وتضع الإنسان أمام ذاته يحاسبها على كل ما تقوم به ومدى جدواه وفاعليته في إرضاء الذات أولاً قبل أيِّ شخص أو مجتمع أو أصدقاء أو...

في تلك المرحلة، تقلّصت دائرتها الحيويّة، تبعثر الأصدقاء وتدنّى التواصل إلى درجة الانقطاع أحياناً. أمَّا ما ساهم في ذلك فعوامل عدّة: أُغلقت في بيروت غالبيّة المقاهي التي كانت ملتقى الأصحاب والرفاق، وتحوّلت إلى متاجر للبيع والربح بعد أن كانت حيّز النقاشات وطرح الأفكار وبلورتها، والأهم من ذلك كانت أداة الوصل بين كل طبقة المثقفين في البلد، وواحة عرض الجديد عند كل باحث أو كاتب أو إعلامي أو أستاذ جامعة أو مناضلة في سبيل تحرير "الإنسى" أو... صحيح أنه فتحت مقاهٍ أخرى، لكنّها لم تتمكّن من لعب دور ال"كافيه دي باري" ولا ال"مودكا" ولا ال" وينبي" ولا ال"سيتي كافيه" ولا غيرها من قبلها كال"هورس شو"وال "لأكسبريس" وال... لم يصمد ويتعزّز سوى مقهى الروضة على شاطئ البحر في غربي بيروت. لكن هذا المقهى تميّز باستقباله كل شرائح المجتمع ولو أن المثقّفين كانت لهم زواياهم وطاولاتهم الخاصة فيه. عوّض هذا المقهى عما خسره قلب بيروت وبات الملتقى شبه الأوحد لمن اعتادوا على جلسات المقاهي.

الخسارة لم تقع فقط على الأمكنة بل تعدتها لتطاول الأشخاص؛ فاستشهاد مهدي عامل هزّ كل الجسم الاجتماعي، وبخاصة الجسم الثقافي والسياسي إذ كان مفكراً ملتزماً وشرساً في الدفاع عن أفكاره وقناعاته عدا أنه كان بشخصيّته المحبّبة، زهرة السهرات التي كان يعطيها وجوده فيها نكهة خاصة. أمّا رحيل عصام محفوظ فكان فاجعة لمن تعرّف على شخصيّته عن قرب. طرافته

وظرافته واستهتاره بالحياة لم يجاريه فيها أحد. وأذكر أنها رثته بحب وصراحة إذ كتبت تحت عنوان: "إلى عصام، احتقرْتَها فهجرتْك ورحلت." قالت له:" ما حظيتْ، يوماً تلك العاهرة بعاشق مثلك. منذ بدايتك وأنت معها. لم تكن وحيداً كما يعتقد البعض، أو الجميع. كانت معشوقتك التي تضجّ بها وتضجّ بك. هي ماكرة وأنت حرّاق سفن .لكنْ كلّما كنتَ تحرق سفينة، عدت لتجدها بين ذراعيك من جديد فتعتصرها حتى الذوبان فيها . تعود إليك، تنفخ ريشها ، تتمرّد وتراوغ. لم تفهم يوماً جنونك بها وعشقك لها. كانت عاجزة عن تقدير ما تُقدّم لها حتى الفناء فيها. غرّها هوسك بها، فتدلّلتْ وتعجرفتْ وتكبّرتْ، لكنك كنت دائماً تسامحها ، تردّها إلى حضنك لترعاها فتمتلىء بك وتمتلىء أنت بها. لم أرك مرّة إلا وهي تتأبّط ذراعك، معتزّة بك وبشغفك بها، ذلك الشغف الذي منحها الشباب والتألّق الدائميْن. لكنّها كانت من طبيعة ماكرة وجشعة، لا ترتوي، وكنت أنت من طبيعة جشعة العطاء لا تنضب. أعطيتها حتى الفناء فيها، فوقعتْ في الغرور، واعتقدتْ أن عطاءك دليل ضعف، فمارستْ مكرها وتواطأتْ مع الآخرين ضدّك. لم تهجرها لأنك أكبر من أن يهجر الضعفاء الفارغين. لم تهجرها ، لكنك احتقرتها ومارستَ ذاتك الساخرة منها وممن تواطأتْ معهم. أهملتَها، فهزلتْ وأحبطتْ. لكن مكرها العظيم أبى الذل، لم تتحمّل احتقارك لها فهجرتك ورحلت وحيدة وبقيت أنت معنا الصديق الذي لن ننساه."

أما رحيل حسن قبيسي، فكان له وقع مختلف عليها؛ انطفأ بذبحة قلبيّة سريعة وهو يسير مع إحدى صديقاته على شاطئ البحر. شعر بألم في صدره، فجلس على حجر كان بالقرب منه على الطريق وأسلم الروح. وحسن كان من المفكرين والمثقفين الحقيقيّين في نظرها، وصاحب نكتة ذكيّة لا يتذوّقها إلا من كان بمستوى حسن من نفاذ الفكر.

تبدّلت الأمكنة ورحل من رحل من الأصدقاء وخان من خان منهم وابتعد آخرون بسبب أنشغالهم بأولادهم ومنهم بأحفادهم ، تبعثر الجمع وأخذ كلّ واحد منهم يبحث عن جديد يعوّض عليه هذا الفراغ . وما ساهم بشكل أساسي في كلّ ذلك هو الوضع الأمني والتفجيرات والاغتيالات التي اجتاحت الساحة على أثر وصول موجة ما سُمّي بالربيع العربي إلى سوريا وظهور "داعش" والإرهاب وأخواتهم على مجمل الأراضي العربية وبخاصة في العراق وسوريا وانوجاد بعض خلاياهما في لبنان. هذا الوضع المتجدّد أرغم كل فرد في لبنان على التقوقع في زاويته مكتفياً بما هو ممكن ومتوافر كي لا يعرّض نفسه للموت المجّاني بسيّارة مفخّخة أو بعبوة ناسفة، أو يكون من الضحايا البريئة لأحد الانتحاريين الذين يفجّرون أنفسهم حتى في دور العبادة وفي المجمّعات التي يأتيها الناس لتأمين احتياجاتهم المعيشيّة و...

هذا الوضع الأمني المتردّي، بالإضافة إلى التبعثر الذي ساهم في إيجاده تبدّل الأمكنة وتغيير معالمها، كان لهما الأثر الكبير

والأساسي في عزلتها هي التي كانت قد انتقلت سابقاً من بيروت للسكن في إحدى ضواحيها حين تعذّر عليها الاستمرار في العيش في بيتها في قلب العاصمة خلال الحرب الأهليّة التي كان من أبرز نتائجها الفرز الطائفي حيث انتقل الكثيرون إلى مناطقهم التي فيها انسجام ديني وطائفي. انتقلت إلى تلك المنطقة هي التي لم تؤمن يوماً بما يسمى الاختلاف بين الناس على أساس طائفي، حتى أنها لم تعرف يوماً ولم تهتمّ يوماً بدين أو بطائفة أحد من أصدقائها أو صديقاتها، أو حتى معارفها العابرين. فعلت ذلك لأسباب أخرى بعيدة كل البعد عما أفرزته الحرب. لكن انتقالها إلى تلك الضاحية صبّ، من حيث لا ترغب، في صلب ذلك الفرز. اختارت المدينة التي أمضت فيها كل فترة الدراسة قبل الجامعة وحيث كان يقيم أبواها بعد أن تزوّج كل أولادهما وباتا وحيدين. لم تعد إلى العيش معهما، حافظت على استقلالها في بيت لها وحدها، لكنّها كانت بالقرب منهما لترعاهما باستمرار، وهو أمر كان يخفّف من قلقها عليهما. اختارت تلك المدينة للأسباب السابقة ولأمر مهم جداً وهو قربها من العاصمة التي شعرت أنها تنسلخ عنها وعن كل ما عاشته فيها، لكنّها كانت تواسي نفسها بقناعة أنَّ ما عاشته قد انتهى، على الأقل، في المدى المنظور.

ابتعدت، لكنّها لم تيأس، وكان حدسها صحيحاً، فبعد إحالتها إلى التقاعد بفترة قصيرة، اتصل بها صديق وزميل تكنّ له محبّة خاصة، وطلب منها أن يلتقيا لمناقشة أمرٍ مهمّ. لم تمهله، لبّت

الطلب والتقيا في مقهى الروضة. وما إن جلسا في المقهى حتى بادرها الصديق موسى وهبه بالسؤال التالي:"ما رأيكِ في إنشاء نوع من جمعيّة، أو سمِّها ما شئت، للزملاء ومن هم على الطريق إلى ذلك؟" لم تفهمه جيداً في البداية، فوسّع فكرته ورحّبت بها لأنها تلبّي رغبتها في عدم الانقطاع عن العاصمة، وفي إحياء نوع من اللقاء الدوري بين الزملاء لتقديم أمر مميّز على الصعيد الفكري والثقافي. لكنّ الموضوع كان يتطلّب جمع الزملاء، وبحث الموضوع والغوص في تفاصيله من إدارة ومقرٍّ ورسم أهداف وغير ذلك...

افترقا بعد ذلك اللقاء وكلٌّ منهما معه لائحة بأسماء من سيتصل بهم من أجل تحديد لقاء لبلورة الفكرة التى أتى بها موسى. لم تطل فترة الاتصالات واجتمعوا في إحدى قاعات كليّة الآداب في الجامعة اللبنانية وبتّوا بأمور كثيرة ومنها تسمية الجمعية ب"اللقاء الفلسفي"، وكان ذلك اقتراح موسى الذي أيّده الجميع. ثم انتقلوا إلى ضرورة إيجاد مقرٍّ للاجتماعات وإجراء كل ما يلزم من أمور إداريّة وغيرها لاكتساب شرعيّة إداريّة تخوّلهم القيام بما هم بصدده وبخاصة أن الهدف كان إصدار مجلّة فكريّة هدفها "الفلسفة بالعربيّة". هذا التخطيط وضعهم أمام ضرورة البحث عن مورد مادي للقيام بهذه المهمّة التي جنّدوا أنفسهم من أجلها . وبعد بتّ مسألة الاشتراك الشهري للأعضاء وتحديد قيمته، تبيّن لهم أنهم بحاجة إلى موردٍ آخر. وبعد عرض أفكارٍ عديدة تمّ الاتفاق على وضع برنامج زيارات بعض رجال السياسة الأثرياء

وعرض الفكرة أمامهم وطلب مساعدتهم ، وانتدبوا لجنة مؤلّفة من ثلاثة أعضاء للقيام بهذه المهمّة، وهي كانت واحدةً منهم.

فُضّ الاجتماع، وبقي الثلاثة المنتدبون للتخطيط لزياراتهم وتحديد ووضع لائحة بأسماء من يختارون بين رجال السياسة، واتفقوا على كيفيّة عرض المشروع أمامهم، وكلّهم أمل أن طلبهم المساعدة لن يرفضه أحد، وذلك لأهميّته بالنسبة للبنان الذي ستكون منه انطلاقة فكرة "الفلسفة بالعربية".

ابتداءً من اليوم التالي باشروا اتصالاتهم وحدّدت لهم المواعيد وتفاءلوا بالخير. لكنّ تفاؤلهم لم يدم طويلاً، لأن كلّ زياراتهم باءت بالفشل أمام التنصُّل المهذّب جداً لكل من عرضوا أمامه مشروعهم. الكل شجّعهم وشدّ على أيديهم لكنّ التبرّع بالمال كان متعذراً لأسباب عديدة، أهمها أن البعض من هؤلاء الأثرياء "كسرو إيدهن وشحدو" أمامهم، كما يقول المثل الدارج. لكنَّ هذه الخيبة لم تثنهم عن القيام بمشروعهم إذ جمعوا الاشتراكات وتمكَّنوا من استئجار مقرٍ صغير في شارع الحمرا، وباشروا بالعمل على إصدار أول عددٍ من المجلة ونجحوا في ذلك. لكن هذا العدد ظلّ يتيماً مع أن مواضيع العدد الثاني كانت كلها جاهزة ولم ينقصها سوى التمويل. وهكذا، انتهى اللقاء الذي لم يشكّل سوى ومضة من الأمل انطفأت بسرعة تماماً كما ومضات السعادة في هذه الحياة.

شكّل انتهاء اللقاء الفلسفي آخر التجمعات المنتجة، القيّمة والممتعة في العاصمة، ممّا دفعها أكثر فأكثر إلى المكوث في منطقتها والاكتفاء بمن يقيم فيها من أصدقاء، وأغلبهم قدامى وقد جدّدت علاقتها بهم. من بين أهمّهم كانت صديقة الطفولة والصِّبا ورفيقة الدرب في المدرسة وأول مراحل الجامعة، قبل أن تفرّقهما الحرب في لبنان لسنوات من دون أن تؤثر على صدق علاقتهما وعمق التفاهم فيما بينهما. سعاد هي هذه الصديقة القديمة الجديدة التي باتت الأكثر التصاقاً بها ومعها تُقام الحوارات وتحليل الأمور والذهاب سويّة إلى المتاجر والمقاهي وغيرها. إلى سعاد تضاف مي التي انتقلت هي أيضاً، مع عائلتها، إلى المنطقة التي عادت هي إليها: وهكذا استمرّت علاقتهما الحميمة على الرغم من بعد المسافة فيما بين مسكنيهما.

أما لتجديد علاقتها ب"تينا"، فهناك رواية خاصة؛ ذات نهاركانت في متجر ال"أ ب س" في منطقة الضبيّة وإذ بها تسمع من يناديها بصوت عابر للسنين. تجمدّت للحظة فالصوت تعرفه جيّداً، هل تحلم؟ استدارت نحو الجهة التي أتى منها النداء وتجمّدت في مكانها وهي تقول:" تينا! هل هذا ممكن؟" بعد سبعة عشر عاماً من الانقطاع التام عن بعضاً عادتا والتقتا صدفة وتجدّدت صداقتهما التي لم تقوى السنون عليها. جلستا معاً وانمحت المسافة الزمنيّة بينهما حين أفضت كلّ واحدة منهما بما مرّت به خلال فراقهما القسري، عادتا سبع عشرة سنة إلى الوراء وانطلقتا معاً، كأن الزمن لم يمرّ على الرغم مما عانتا منه خلال الحرب

في لبنان من رعب وتهجير واختباءٍ في الملاجئ و... تماماً كما عانى كلّ الشعب اللبناني.

لكن ومع تجدّد علاقاتها في محيطها، لم تنقطع كلياً عن العاصمة وثابرت، ولو بتقطّع، على لقاء الأصدقاء والصديقات وبخاصة "موسى" وشلّته و"يسرى" و"حياة" و"هنادي" التي بدأت تعتبرها كابنتها نظراً لصغر سنّها بالنسبة إليها وإلى باقي الأصدقاء. هذا ما انتهت إليه اللقاءات بعد أن كانت عامرة وبخاصة في بداية انتقالها من العاصمة حيث إنها ثابرت على إقامة السهرات للأصدقاء، سهرات يتخلّلها الأكل والشرب والرقص والغناء وكل أنواع التسلية. كانوا يأتون إليها وهم كثر، وهي لم تنقطع عنهم وتزورهم باستمرار حين كانت تدعى إلى السهرات التي يقيمونها في بيوتهم. هذا النمط من اللقاءات لم يستمر طويلاً، وبدأ يتلاشى "فالبعد جفى" كما يقال. وهكذا بدأت العلاقات تتقلص وبعضها ينتهي إلى ان اقتصر على عددٍ قليل وهم من ثابرتْ على لقائهم ولو بفترات متقطّعة. وفي نهاية هذه المرحلة تقلصت رحلاتها إلى العاصمة، لكنّ الخط المعاكس، من العاصمة إلى حيث هي ظلّ نشيطاً، لكنّه اقتصر على رفاق ال"بوكر" الذين كانوا يجتمعون كلّ اسبوع مرّة، في بيتها، حيث كانت تمضي معهم سهرة ممتعة تمتدّ أحياناً حتى الصباح. من بين هؤلاء، كانت صديقتها العزيزة "فاطمة" أو "تيما" كما كانوا ينادونها تحبّباً. هذه اللقاءات أيضاً أخذت بالتلاشي والتقطع إلى ان انتهت وتفرّق الرفاق.

بات كل واحد من الشلّة الكبيرة منزوياً في عالمه وأهل بيته من آباء وأمهات وأبناء وأحفاد وأقارب و...تساقطوا من فوق الغربال، منهم بسبب البعد والظروف الخارجية ، ومنهم من أُسقط عن عمد لأنه لا يستأهل تسمية الصديق التي تعني لها الكثير.

في بداية انتقالها من العاصمة إلى حيث بيت أهلها، كانت لا زالت تنتمي إلى المؤسّسة التي تعمل فيها وهذا ما سهّل استمرار لقاءاتها بأصدقائها، هذه اللقاءات التي ما بدأت بالتقلّص إلا بعد إحالتها إلى التقاعد وبات الذهاب إلى العاصمة بناءً على برنامج محدّد. هذه الإحالة إلى التقاعد التي أضعفت علاقاتها بسكان العاصمة، قوّت علاقاتها بأهلها وأخوتها الذين كانوا في السابق وكأنهم على هامش حياتها لأنهم لم يتدخّلوا، يوما، بما كانت تقوم به من نشاط اجتماعي أو فكري أو غيرهما. كانت ثقتهم بها كبيرة ويحترمون حرّيتها التي ناضلت كلّ حياتها في سبيل تحقيقها.

لكنَّ انتقالها من العاصمة هرباً مما آل إليه الوضع بسبب الحرب في لبنان لم تنج منه في المنطقة التي لجأت إليها ؛ فما كادت تركّز وضعها في بيتها الجديد حتى تأزّم الوضع بين الفريقين السياسيين المسيطرين على المنطقة، ما دفعها إلى البقاء، بشكل دائم في بيت أهلها قبل أن تفقد والدها وتنتقل مع والدتها إلى الضيعة، حيث طاب لها العيش ودفعها إلى اتخاذ القرار بأن تنتقل إلى العيش في الضيعة بعد أن تترك عملها. هل نُفِّذ قرارها؟ في

حينه كانت، المسافة الزمنيّة لا تزال كبيرة بين القرار والتنفيذ الذي لم يتحقّق.

انتهى الوضع الأمني، وعادت إلى بيتها لتبدأ مرحلة جديدة وهي مرحلة الالتصاق بالعائلة واكتشاف حلاوة هذا الالتصاق، حيث العلاقات صافية وصريحة تختلف عن العلاقات مع الآخرين وإن لم يكن كلّ الآخرين. هذا الاكتشاف ساهم في ابتعادها أكثر فأكثر عن جمهرة الأصدقاء السابقين ما عدا القليل جداً منهم. وهكذا يكون قد اجتمعت الأسباب الموضوعية والأسباب الذاتية لإيجاد واقع له معطياته التي ساهمت في توجّهاتها المبنية على كوكبة من الأسئلة الجديدة.

بعد عودتها من الضيعة، تابعت عملها في المؤسّسة، ونمط تحرّكها بالتنقل بين العاصمة ومكان إقامتها، واستمرّت اللقاءات مع الرفاق والأصحاب ولو أن عددهم قد تقلّص جداً، إلى أن أحيلت إلى التقاعد وتبدأ نمطاً جديداً ميزته الأساسية انحسار العلاقات الخارجية، لتقتصر على عددٍ قليل ممّن هم في عالمها الجغرافي القريب. ولكي تتفرّغ كلياً من كلّ ما يعكّر عليها عودتها إلى ذاتها، استقالت من هيئة تحرير إحدى المجلاّت التي كانت تعمل فيها إلى جانب عملها الأساسي واستراحت من كلّ التزام وظيفي لتتحوّل تحرّكاتها وفقاً لرغبتها، وليست مفروضة عليها بأي أمر من خارج إرادتها.

تقاعدت بكلّ معنى الكلمة ،حتى إنها بدأت تشك بجدوى الكتابة ومعناها ودورها، وبخاصة أنها اكتشفت، من خلال تجربتها، أن تقييم الكتابة، في مجتمعاتنا المتخلّفة، لا يخضع لمعايير علمية موضوعيّة، بل لمزاجية من يدّعون بأنهم نقاّد وهم في غالبيّتهم خاضعون لتجمّعات "أدبيّة" مافياوية، تمدح من هم مقرّبون منها ويدورن في فلكها وتقدّمهم للقارئ وكأنهم المبدعون الذين لا مثيل لهم بينما تكيل السباب والشتائم بمن يهملهم وفي أغلب الأحيان من دون أن يقرأوا كتاباته. لكنّها كانت تواسي نفسها بالقول:"الزمن هو الغربال وهو المصفاة الحقيقية للأعمال المكتوبة وغيرها." وكمثال على أهميّة النقد في مجتمعنا، لا بد من رواية ما قام به أحد الذين يدّعون النقد الأدبي بالنسبة لإحدى رواياتها، وهي " تركتُ الهاتف يرن" حيث أنه كتب مقالاً في إحدى الصحف المحترمة حول الرواية، وتبيّن أنه واحد من إثنين: إمَّا أنه لم يقرأ الرواية وما مقاله سوى إظهار تحيّزه الأعمى، أو أنه قرأها ولم يفهمها بحيث التبست عليه الأدوار، فأتى مقاله دليلاً على غبائه وادعائه الفارغ. والأمثلة كثيرة ولا مجال لسردها، لا تستأهل الاعتبار. تستأهل فقط الضحك لأنها بالفعل مهزلة.

أمر آخر دفعها إلى الشك بجدوى الكتابة، وهو تسليع الكتاب بحيث يجنّد الكاتب نفسه إلى متابعة كتابه بعد نشره بشتى الطرق: أو أنه يحاول أن يتقرّب من مافيات النقد ويسايرها كي تكيل له المديح، أو أنه يتابع توسيع نشر كتابه بواسطة إهداءات مجانيّة

للصحافة والتلفزيون وغير ذلك من وسائل الإعلان، أو أنه يتقرّب إلى من له صلات بدور نشر أجنبيّة لترجمة كتابه، أو أنه يحاول ويستميت في سبيل إقامة الندوات حول ما كَتب أو غيره بحيث يتحوّل الكتاب إلى سلعة يحاول صاحبها تسويقها بشتى الطرق المذّلة. وهي في ذلك تلام من قبل بعض الأصدقاء لأنها تهمل كلّياً كتاباتها ولا تجامل النقّاد ولا تتّصل بأحدٍ منهم ولا ولا ... وفي رأيها أنهوهي " حين يخرج الكتاب من المطبعة وينشر، يصبح ملك القارئ، فلنتركه يسلك مساره بحريّة. يكفيني أنّني كتبته بكل اقتناع وشبق، فليفعل فعله كما يشاء، لن أتدخّل بمساره ولست مستعدّة لمسايرة أحدٍ لتسويقه، وأتقبّل، من دون انفعال، لا سلباً ولا إيجاباً، كلّ ما يأتيني منه، تكفيني متعة الكتابة التي أمارسها حين أشعر بلذّة الغوص فيها من دون أن أرغم نفسي على أي شيء، لأن الموضوع يأتيني من تلقاء ذاته، وما دوري سوى متعة تحويله إلى عالم الكلمة. فإن تحوّلت الكتابة إلى ادّعاء فهي لا تعنيني."

تقاعدت بفرح لم يشعر به غالبيّة المتقاعدين إجمالاً، بحيث يشعرون بالفراغ بعد سنين من العمل الذي كان يشغل أوقاتهم، ولهذا السبب يحاول الكثيرون، وبشتى الطرق أن يجدوا عملاً آخر. هل هو الخوف من مواجهة الذات؟ هل هو الخوف من الفراغ؟ هل هو الشعور بانتهاء الدور، وبالتالي الاقتراب من النهاية أو تلك الهاوية التي لا رجوع منها؟ كل ذلك ممكن، لكنْ لماذا يكون تأثير التقاعد أكثر سلبية، على الرجل منه على الإنسى

كما هو ملاحظ لا بل كما هو الواقع؟ ربما لأنَّ الإنسى أوسع خيالاً من الرجل في استنباط أدوارٍ مختلفة كي لا تُستنزف بلعب دور واحد تنتهي بانتهائه. لكنّ الأمر لا يعمّم، وهناك نساء كثيرات يحاولن الاستمرار في أي عمل بعد تقاعدهنَّ وذلك له علاقة مباشرة في استماتتهن لإخفاء عمرهنّ الحقيقي كأن إخفاءه ومحاولة تزويره يجعلهن دائمات الصبا. وذلك واضح على صفحات ال"فيسبوك" حيث إن البعض منهن إما أنهن لا يسجلن تاريخ ميلادهنَّ أو أنهنَّ يغيرنه ليصغرن أكثر من عشر سنوات. وهذا الأمر لا يطاول بعض الجاهلات المتلهّيات بقشور الحياة، بل هناك بعض ال"مثقفات" المعروفات جداً اللواتي يلجأن إلى هذا الغش من دون أيِّ ورع أو خجل مما يجعلها، حين ترى ذلك، تعلّق بالضحك والقول:" العقل زينة." بخاصة أنها تعرف بعضهنَّ جيداً وتعرف أعمارهنَّ الحقيقية.

لكنها تقول دائماً إنه وعلى الرغم من قلة عقل بعضهنَّ يبقى أن الإنسى هي أكثر تكيّفاً مع الحياة ،وكلّ سلبياتها من الرجل، وقادرة على العيش من دونه بينما هو عاجز عن ذلك، وتستشهد على ذلك بأن الإنسى تتكيّف مع الترمّل وتتابع حياتها بشكل طبيعي، بينما الكثير من الرجال هم أعجز من متابعة حياتهم بعد رحيل زوجاتهم ويلحقون بهنَّ بسرعة في حالات كثيرة . من هنا يأتي التقاعد محبطاً للرجل ولبعض النساء، بينما يكون مرحلة جديدة تباشرها الإنسى بكل اندفاع بحيث أنها تعود لممارسة دورها كأم مع أحفادها، وهو دور حرمها منها العمل في مرحلة

الشباب. ولهذا السبب نلاحظ أن من كنّ عاملات في شبابهن هنّ جدّات مثاليات بعد تقاعدهن ويساهمن بتوفير الوقت اللازم لبناتهن للتفرُّغ لأعمالهنَّ أو للّهو أحياناً.

هذا ما تقوله عن الآخرين بناءً على ملاحظتها للواقع، لكنْ ما هو الوضع بالنسبة لها؟

تقول إنها بتقاعدها شعرت كأن حملاً ثقيلاً قد سقط عن منكبيْها وتحرّرت من التزام قيّدها لسنين عديدة ولو أنه لم يمنعها من القيام بأعمال كثيرة أخرى. وتحرّرها هذا رافقه ارتياح كبير، لأنها تعتبر أنها قامت بدورها الوظيفي على أكمل وجه ومنحته كل اهتمامها، وتعتقد أنها تركت بصمة محبّبة في مجال عملها. وهي تعتبر أن التقاعد حق وواجب؛ حقّ للموظّف أن يستريح وواجب عليه أن يفسح في المجال لغيره من الشباب الجدد أن يجد فرص عملٍ، وأن يغني المجتمع بما اكتسبه من معلومات جديدة وخبرات. كان من الممكن أن تتابع عملها ولو بصفة متعاقد كما عرضت عليها المؤسّسة حيث كانت تعمل ، لكنها رفضت بشكل قاطع، لأنها ليست من نوع البشر الذي يهاب العودة إلى الذات والانشغال بها من دون أن تشعر بالملل أو الضجر كما يحصل مع كثيرين وهي تردّد دائماً:" طالما هناك كتب ومكتبات ومكتبتي مليئة بالكتب القيّمة التي تُقرأ أكثر من مرة من دون ملل، وطالما بمقدوري الجلوس أمام الحاسوب للكتابة، فأنا لا يمكن أن أشعر بالفراغ أو الضجر."

بعد أن انهتْ كلامها وأنا أستع إليها سألتُها:

_ " والوحدة**!**". فأجابت، بنوع من المكابرة، كما أظنّ:

_ربّما كانت الوحدة مؤلمة بالنسبة إلى الرجل والمرأة، لكنها أقلّ إيلاماً بكثير لدى الإنسى؛ فالرجل إجمالاً ومن دون تعميم، يشعر باليتم وبالفراغ حين يكون وحيداً، لكن البعض منهم يبحث عن هذه الوحدة والعزلة كي يكمل مشاريعه الأدبية والفكريّة التي يكون قد بدأها في مرحلة الشباب، ولهذا السبب تكون الوحدة نعمة وليست نقمة أو لعنة كما لدى الغالبيّة. وكذلك الأمر عند الإنسى مع التأكيد أن الأمر، بالنسبة إليها ، هو أسهل مما هو بالنسبة إلى الرجل الذي في مثل وضعها. ولا تصبح "الوحدة" قاتلة إلَّا عند المرأة وعند الرجل الذي يتحوّل مع مرور السنين إلى امرأة - ذكر كما تتحوّل هي إلى رجل - مؤنّث. فالوحدة ليست عبئاً ثقيلاً إلا لدى هؤلاء الذين، مع الأسف، هم الأكثريّة الساحقة. ولأنهم الأكثرية فهم القاعدة، ولهذا السبب تطرح القضيّة وكأنها مشكلة عامة.

لم أقتنع كلّيا بجوابها وسألتها من جديد:"لا أهتمّ للمشكلة العامة. وسؤالي محدّد وواضح: كيف انتقلتِ من الحياة الناشطة إلى التقاعد، وكيف تملئين الفراغ الذي أحدثه التوقّف عن العمل خارج البيت، وبخاصة أنك تعترفين بأن عدد الأصدقاء قد تقلّص جداً وانتهى الصخب الذي كان ميزة الأيام السابقة؟" ابتسمتْ وأجابت:" كي تشبع حشريّتك ونهمك للتلصّص على الآخرين

تماماً، كما بعض قرّاء رواياتي، امنحني صمتك واتركني أروِ، وفقاً لمزاجي، وأعدك أنني سأكون واضحة وصريحة وأحياناً جريئة، كما في كل ما كتبت حتى الآن رغم أنف كل الذين استنكروا هذا النموذج من الكتابة القليلة جداً في عالمنا الأدبي العربي. ولهذا السبب، سأبدأ من البداية ولن أخفي إلا ما هو خافٍ عليّ أو أنه قابع في لاوعيي لأترك لك مجال التفنّن في التقاطه وفقاً لرغباتك التي منها المكشوف ومنها المستور.

باشرتْ بالسرد ابتداءً من لحظة تقاعدها وأنا بدأت بالتقاط ما يجذب إصغائي إليها بعد تمريره بتلك الغرفة التأويلية القابعة في ذهني تماماً كما هي قابعة في أذهان كلٍ منّا قارئاً كان أو مستمعاً. سمعت منها وأوّلتُ على هواي تماماً كما سيفعل القارئ الذي بدوره سيؤوّل على هواه وغاياته وقربه أو بعده من صاحبة السرد. من هنا أتفهّم قولها حول رواياتها وعدم اهتمامها بمتابعتها وتسويقها كما يفعل الكثيرون؛ تقول دائماً إن النصّ حين يخرج من يد الكاتب يصبح مُلك القارئ، وفي ذهن كلٍّ منهم مصفاة مكوّنة من عناصر عديدة وأهمّها عنصران أساسيّان: الحب بمعناه العريض، والكراهية بمعانيها ومكوّناتها العريضة. أمّا الموضوعيّة في القراءة فهي قليلة جداً، ولا تسكن إلا أذهان الأصدقاء الحقيقيّين الذين يواجهون الكاتب بكلّ ودّ كي يساعدوه في استدراك بعض الأخطاء في كتاباته اللاحقة، وليس للشماتة به كما حال ال"أصدقاء" المراوغين. أما عن الغيرة فحدّث ولا حرج، وهي في الغالب مبنيّة على عجز القارئ أو القارئة،

ولأسباب عديدة عن امتلاك الجرأة التي تتمتّع هي بها. وهو أمر باحت لها به إحدى ال"صديقات" التي تنعم بموقع نقدي مرموق في مجال الكتابات الأدبيّة من رواية وشعر وغيرهما. انطلاقاً من هذا الواقع قالت إنها تروي غير أبهة بالأواليات التي ستحرّك المتلقّي بدءاً مني أنا، المستمع والمراقب المباشر إلى القارئ تالياً.

أمضيت معها لياليَ عديدة محاولاً، قدر الإمكان، وهو أمر ليس سهلاً، إطفاء محرّكات كل أواليات التأويل والنقض لديَّ كي أكون ناقلاً موضوعياً لما سمعته منها بكلّ تعرّجه وانسيابه، وأحياناً تلعثمه وتوقّفه، مع وعدها لي بأن تكون صادقة وشفّافة حتى في المواقف الحرجة التي يحاول بعض الكتّاب إما إغفالها أو تجميلها كي لا تُخدش الصورة التي حاولوا إظهارها للآخرين عن أنفسهم وبحيث يتحوّلون إلى أسرى لهذه الصورة الخاضعة لكمية من عمليات التجميل التي لا تُحصى. هل سأنجح في تمسّكي بالموضوعيّة؟ سأحاول لأنني صديقٌ لها منذ ان تعارفنا وأكنّ لها كلّ الحب والمودّة . أعرف أنّني، وعلى الرغم من علاقتي الحميمة بها، لن أتمكّن من إسكات كلّ مكوّنات التأويل في ذهني، لكني سأتّبع منهجيّة البوح بها، حتى ولو قاطعتها وأوقفت انسياب السرد الذي سيدخل في تعرّجات التبرير والتوضيح والتصحيح و... ربما أكون، بهذه المنهجيّة، أقرب إلى الموضوعيّة التي أبتغيها. لهذا السبب طلبت منها أن نعود إلى البداية وفقاً لمنهجيّتي الجديدة. لم تمانع، ورحّبت بما سمعته مني، وحاولتِ الانطلاق من جديد .

لكنْ قبل أن تنطلق بسردها، خطر ببالي سؤال طرحته مباشرة عليها كي أصوّب القول وكي أطبّق منهجيّتي: سألتها إن كانت هي توقف أواليات التأويل لديها حين تروي ما ترويه عن ذاتها وعن الأحداث التي شهدتها وعن الذين تطالهم في سردها؟ وأتاني جوابها وابتسامتها معاً وقالت إنها كانت تتوقّع هذا السؤال وهو عندها من باب البداهة، لكنّها منحازة إلى هذا المنخل القابع في ذهنها لأنها تعتبر أنها أفنت عمرها في نسجه كي يكون على قدر كبير من الشفافية بحيث يخرج منه القول أقرب ما يمكن من الصدق مع ذاتها، وبالتالي مع الآخرين.

سلّمت جدلاً بما قالت، واتخذت موقع المتلقّي والناقل لقولها وفق المنهجيّة التي وضعتها لنفسي، وسمعتها تتنحنح قبل أن تقول:

_ كنت قد انغمست في متعة الكسل، وها أنتَ تردّني إلى لذّة البوح الذي يضعني عارية أمام ذاتي وأمام الآخرين، بشكل أن النقد لا يجد لباساً يتمكّن من التمسّك به ليطلق قوله فيتحوّل إلى نوع من السباب والشتائم لا يحمل أي ذرّة من الاقتناع، ومن ثمّ الإقناع.

أمام صمتي وعدم تعليقي، أدركت أنني ما عدت راغباً بالمقدّمات، وأنني بانتظار ما أسمته بوحاً! وانتقلتْ إلى الموضوع الذي أنا بصدده، قالت:

_ في أواخر حزيران من تلك السنة أُحلت إلى التقاعد، وبدأت بإتمام الإجراءات الإداريّة المطلوبة كي أتمكّن من الحصول على راتب التقاعد، أو التعويض لمرّة واحدة. لم أكن متردّدة في اختياري وتبعت نصيحة والدتي واخترت صيغة التقاعد التي هي بنظرها أضمن لي من صيغة التعويض .

هنا خطر ببالي سؤال طرحته مباشرة عليها وفقاً للمنهجيّة التي اتفقنا على احترامها، وأجابتني وهي تضحك:

_ أخفيتُ، عمداً، ذكر السنة التي تمت خلالها إحالتي إلى التقاعد لأتأكد من أنك صادق في احترام المنهجيّة، وأمام تأكدي هذا سأذكر التاريخ الصحيح إذ إن سنة تقاعدي هي2008 وتاريخ ولادتي معلن للجميع على صفحتي في ال"فيسبوك" وأجبتها:

_ أعرف أنك لا تخفين، كما يفعل غيرك، تاريخ ميلادك. وهنا لا بد من أن أخبرك أن "صديقتك"...لم تخجل من تغيير تاريخ ميلادها على صفحة ال"فيسبوك" الخاصة بها، إذ إنها اقتطعت منه حوالى الثماني سنوات.

_ قرأتُ ذلك على صفحتها وضحكت. والآن وبعد أن أشبعتَ حشريّتك فلنعد إلى موضوعنا؛ يوم تقاعدي، لملمت كلّ اوراقي من مكتبي في المؤسّسة، ركبت سيّارتي وتوجّهت إلى بيتي وأنا أغنّي مقطعاً من أغنية لأم كلثوم يقول:"أعطني حرّيتي، اطلق يديّا..." وهكذا، حين وصلت إلى البيت رميتُ أوراقي على

المكتب واعدة نفسي بأن أرتّبها لاحقاً. تمدّدت على الكنبة في الصالون، وطلبت فنجان قهوة من الخادمة، وسرحت بي الأفكار إلى ما سأفعله من الآن وصاعداً. وأول عمل قمت به، بعد أن شربت القهوة واسترحت هو أنّني بدأت بفرز الأوراق والملفّات التي حملتها من مركز عملي إلى البيت، ورميت الكثير منها في سلّة المهملات، إذ لا حاجة لي بها بعد ذلك اليوم.

قالت ذلك وصمتت وهي مغمضة العينين. احترمت صمتها، وانتظرت عودتها من شرودها الذي دام لفترة قصيرة، إذ فتحت عينيها وهي تبتسم وتقول:

_ كلّ نهاية مؤلمة، حتى ولو اعتبرناها تحرّراً، فهي تضع في فمنا مرارةً هي طعم الذي انتهى ولن يعود كما تضعنا أمام عظمة الزمن الذي يتابع سيره رغم أنوفنا غير آبه بكلّ ما عداه.

صمتت من جديد. لكنّ صمتها لم يطل، ابتسمت، اخذت نفساً طويلاً وقالت:

_ لكلٍ منَّا دور يؤدّيه على مسرح هذه الحياة. الدور يستمر ونحن ننتهي. نسلّمه لغيرنا ونستريح.

وقبل أن تنهي لفظ كلمة "نستريح"، انتفضت وتابعت:

_ دور ينتهي وغيره يبدأ، وأحياناً كثيرة يكون الدور آسراً، وحين ينتهي نشعر بالخفّة . وهذا ما شعرت به حين انتهى دوري في

المؤسّسة، على الرغم من طعم المرارة الذي يرافق أية نهاية. أما الدور الذي قرّرت خوض غماره بعد أن انتهى الدور الآسر في الوظيفة، هو التفلّت من كلّ القيود كي أعيش وفق رغباتي وميولي وحتى تفاهاتي ...

وقبل أن تتابع انفجرتُ بالضحك وقلت لها :" ومتى كنت غير ذلك؟ حتى الزواج لم يقيّدك. وكان الطلاق، بالنسبة لك من أهون الأمور، وقد قمت به مرّتين من دون أن تصغي لنصائح أحد" ضحكت بدورها وأجابتني:

_ لا أطيق القيود، حتى التي أختارُها، أحياناً، لذاتي. القيد يشعرني بالاختناق، ويضع في فمي طعم الموت. المهم هو أنّني قرّرت الانغماس بمتعة الكسل حتى النهاية، وأن أقوم بكلّ ما يحلو لي من دون تخطيط ولا حسابات. هذا كان قراري الأوّلي بعد تقاعدي مباشرة، لكنْ هل تحقّق ذلك؟ لا أظنّ. لأن الأمور جرت بعكس ما كنت أشتهي؛ فالرغبة الأولى التي كنت أودّ تحقيقها كانت أن أمضي أغلب أوقاتي في الضيعة لأعود إلى جذوري وأقشط عن جلدي كلّ ما علق به من أورام المدينة والتمدّن، ولأعيش في حضن البيت الذي وُلدت فيه، والذي يختزن كلّ أسرار العائلة. لكنَّ هذا البيت كان قد هُدم، ونبت مكانه بيت أخر ليست لي فيه أيَّةُ ذكريات ،وأهميّته الوحيدة هو أنّه يوقظ في داخلي الحنين إلى ما كان.

هنا قاطعتها لأقول:" ولذلك كتبت روايتك الأخيرة: صورة على هاتفٍ جوّال، حيث حوّلت ذلك البيت إلى كائن حيّ يروي سيرته و..." لم تتركني أتابع، إذ قالت:

_ هذه الرواية ليست الأولى بعد إحالتي إلى التقاعد، لقد سبقتها رواية عن المعاناة والألم اللذيْن عشتهما مع "والدتي" التي تحوّلت إلى "أمّي" بعد أن فقدتها، لا بل قبل رحيلها، لكن بقليل.

قالت ذلك وصمتت. احترمت صمتها، وتركت لها الحريّة في أن تستأنف سردها ساعة تشاء. لكنْ سرعان ما خرجت من صمتها، لتقول:

_ أمي كانت أول من اتصل بي بعد أن عدت، ذلك اليوم، من عملي لتعبّر لي عن فرحتها بتقاعدي. لقد اعتبرت أن لا عمل، بعد الآن، يشغلني عن الاهتمام بها . وقد ألمحت لي بأنها تأمل بأن أنتقل إلى السكن معها، حيث البيت كبير ولي فيه غرفة خاصة. ومن هنا، بدأت معاناتي الحقيقية معها، إذ عشت التمزّق الحقيقي بين رفضي لتملّكها لي ولكل نشاطاتي وشعوري بالذنب تجاهها. كنت أتفهّم تمسّكها بي ، إذ كانت تعيش وحدها مع خادمتها، لكني كنت أرفض، وفقاً لطبيعتي المتحرّرة، أن يتدخّل أحد في حياتي ويملي عليَّ نمطاً معيّناً من التحرّك أو العيش أو غيرهما. لكن لا أسهب في الخوض في هذا الموضوع، لأنني أوفيته حقه في روايتي التي نشرتها بعد وفاة الوالدة، والتي عنونتها:" رحلت والدتي، بقيت أمي."

_ كيف وجدت هذا العنوان؟ سألتُها قبل أن تتابع، وأجابتني على الفور:

_ من الواقع، وقد عوّدت القارئ على ذلك، حيث إنّني لا أجمِّل القبح ولا أقبّح الجمال وأصدق ما توصف به كتاباتي هو ما قاله الصديق الغالي موسى وهبى في الندوة التي أقامتها دار النشر حول روايتي الأخيرة: "صورة على هاتف جوّال". في تلك الندوة قال موسى في خاتمة مداخلته القيّمة:" كتبتُ ذات مرّة:" كلّ كتابة متقنة تقرير مرفوع إلى السلطات المختصّة. وصاحبة هذه الرواية، حين تكتب، آخر ما يهمُّها هو الإتقان، فحيث لا سلطات يرفع إليها يكون الإتقان تكلّفاً وفساد صنعة. والطلعة البهيّة لن يزيدها التبرّج بهاءً." موسى هو قارئ مميّز، ويفهمني جيّداً .ولهذا السبب كتب ما كتب. هو يعرف أنّني لا أراوغ وأن نقل المشاعر والأحاسيس والوقائع كما هي هو هدفي من الكتابة ولا أترك للقارئ مجالاً للتأويل أو غيره، والقارئ العادي، والذي يدّعي العلم والثقافة، يندهش من صراحتي ويعتبرها جريئة، بينما هي ملامسة للواقع ونقله إلى عالم القول ، من دون تمريره بمصفاة الخبث والرياء بمحاولة لتجميله ولتقديم صورة عن الذات بهيّة لا تشوبها أية شائبة. والأمثلة على هذا الرياء لا تحصى، وبخاصة في كتابة السيرة.

لم أعلّق على قولها هذا، واكتفيت بالابتسامة التي تعني: أعرف رأيك هذا، وأنا هنا لأستمع إلى رحلتك بعد التقاعد والتي تحاولين

الابتعاد عنها كلّ ما سنحت لك الفرصة. فهمتْ موقفي هذا، وقالت:

_ إذاً، أول من تلقفني وفرح بتحرّري من الوظيفة كانت الوالدة، التي كانت تعلّل النفس بامتلاكي نهائيّاً. لكنَّ أملها خاب ولم ألبِّ رغبتها في العيش معها في بيتها واستمرّت علاقتنا على ما هي عليه على الرغم من إلحاحها في ملاحقتي هاتفيّاً أينما كنت. هذا الوضع الخانق دفعني إلى البدء بكتابة رواية تحت عنوان:"والدتي ليست أمي". باشرت بكتابتها وأنا في حالة من التوتّر الشديد ومن الرفض لهوس والدتي في ملاحقتي، أنا التي عشت كلّ حياتي رافضة لأي التزام يقيّدني غصباً عنّي. لكن في تلك الفترة كنت ما زلت على علاقة ببعض الأصدقاء الذين ألتقيهم، وأمضي برفقتهم أوقاتاً ممتعة تنسيني غضبي. ومن أهم هذه الأوقات كانت جلسات لعب البوكر، حيث كنا نجتمع وننسى كلّ ما هو خارج جدران البيت ،أو حتى خارج دائرة الطاولة.

_ هنا تدخّلت لأقول:" وهذا ما لامك عليه الكثيرون، وانتقدوا كتاباتك عنه." ضحكتْ وأجابتني:

_ يبدو أنك لم تفهم ما كتبه موسى وهبه، ولا هم فهموا أن كتاباتي ليست مرفوعة لأية سلطة سوى سلطة القول الصريح الذي ينقل الواقع كما هو، من دون مواربة أو مخاتلة، من أجل إرضاء قارئ يخشى أن يواجه ذاته ولو مرّة واحدة في حياته. فلو كتب كلٌ منا تجربته الخاصة كما هي ومن دون تجميلها

بالأكاذيب لتكوّن لدينا أدب حديث رفيع يضاهي الأدب العالمي ، لا بل يتخطاه. إن "أعرف نفسك"، كما نصحنا سقراط لا تكفي إن لم تتحوّل هذه المعرفة إلى قول. لكنْ، وانطلاقاً من موقفي هذا، لا أريد أن أحاكم الكاذب أو المراوغ فهو حرٌّ فيما يقول أو يكتب، والقارئ الجدّي يقيّم انطلاقاً من علاقته مع ذاته، فإن كان كاذباً مع ذاته يقبل الكذب ويعتبره أدباً رفيعاً، وإن كان صادقاً مع ذاته يهزأ من الكاتب الكاذب ومن كل كتاباته حتى لو كان اسماً مكرّساً في عالم الأدب.

ولأخرجها من هذا الاستطراد، وأعيدها إلى سردها الأول قلت:" ليتني لم أعلّق على كتابتك عن البوكر، لأنّني أعرف موقفك من الموضوع . والآن، فلنعد إلى متابعة ما انقطع. لكنّها أجابتني بعد صمت قصير:

_ كان لا بد من التوضيح. والآن أعود إلى المتابعة. إذاً، كنت أهرب من والدتي بلقاء الأصدقاء قبل أن تشتّتهم الأيام . كان لتلك المرحلة تخطيط آخر في ذهني. كانت رغبتي أن أعيش في الضيعة وأنسى كل ما يربطني بالمدينة، ولكنت في ذلك لبّيت رغبة والدتي بأن أكون معها ، لكنَّ هدم البيت العائلي، في الضيعة، بسبب ترهّله، والمباشرة ببناء بيت جديد، حال بيني وبين تنفيذ هذه الرغبة، ودفعني إلى الغرق في نمط العيش الذي ذكرته.

أمام مرورها السريع على قصة هدم البيت العائلي في الضيعة مقارنة بما كتبتْه عن ذلك البيت، لم استطع السكوت، فقلت:"لكنَّ هدم ذلك البيت كان له الأثر الكبير عليك، كما يتبيّن لقارئ روايتك عنه و... لم تتركني أكمل، وقالت:

_ أكثر مما تعتقد، شعرت بهدمه أنّني أُقتلع من جذوري، ورثائي له في تلك الرواية لم يشفني من تعلّقي به وما زال في مخيّلتي وذاكرتي. وحين أفكّر بزيارة الضيعة لا أرى سواه ولا يتبادر إلى ذهني إلا صدره الرحب الذي كان بوسع الضيعة وكلّ أهلها. لم يكن بيتاً عادياً بالنسبة لي بل كان يختصر مفهوماً للضيعة ما عدت أجده الآن. الضيعة تحوّلت إلى مدينة صغيرة، مدينة بكلّ ما للكلمة من معنى وفي أدقّ التفاصيل. ولهذا السبب ما عدت اشتاق إليها كما من القبل. ما عادت تعني لي سوى أنها محطتي الأخيرة ...

لم أتركها تتابع، وقلت لها على الفور:" بعد عمر طويل إن شاء الله." وأجابتني بسرعة:

_ ليس أكثر من همّتي على تحمّله، فطالما أنتَ قادر أن تلبي كل حاجاتك بنفسك تكون الحياة مُحتملة، وإن بتَّ بحاجة إلى غيرك لتلبية هذه الحاجات، فالموت أرحم.

لم أجبها إلا بهزّة رأس، يُفهم منها موافقتي على ما قالتْ، وأقفلتُ الموضوع لأردّها إلى ما كنا عليه، وقلت:"إذاً أرغمتِ على البقاء حيث أنتِ، تابعي أنا كلّي آذان." فقالت بعد شرودٍ قصير:

_ بقيت حيث أنا، وبدأت معاناتي الحقيقية مع والدتي التي، كما قلت لك، أرادت أن تصادر كلّ أوقاتي، مما دفعني إلى المباشرة بكتابة الرواية التي حملت عنوان:"والدتي ليست أمي."

لم أتركها تتابع، وقلت:" هذه الرواية لم تصدر ولم يقرأها أحد حتى الآن." وأجابتني:

_ ولن تصدر ولن يقرأها أحد، لأنَّ وجع المرض والعجز ورهبة الموت وحقيقة اللاعودة والوداع الأخير، كلّها تجارب تخلخل كيان المرء وتدفعه إلى تغيير، ليس عنوان رواية فقط، بل نمط حياته كلها واهتماماته كلّها.

قالت ذلك وغرقت في ذاتها، وعيناها شاردتان كأنهما انقلبتا نحو الداخل. دام ذلك لأكثر من خمس دقائق قبل أن تعود إلى ذاتها وتراني. ابتسمت ،وقالت وهي تهز رأسها:

_ رحيلها غيّر كل نظرتي للحياة وللناس وللعلاقات و...وبخاصة العلاقات والصداقات غير السليمة و غير الصادقة.

ولكي أصحّح لها مسار تفكيرها، ذكّرتها أن تصفية حساباتها مع مفهوم الصداقة قد تمّت قبل رحيل أمها. قبلت ملاحظتي، وقالت:

_ تلك الرواية التي كتبتها حول الموضوع، كنت قد بدأت بها قبل إحالتي إلى التقاعد حين ما عدتُ أتحمّل الكذب والرياء. لكنّ نظرتي إلى الحياة كانت ما زالت ترى بعض البياض في الساحة، وأعترف لك أن معاناتي مع والدتي قبل مرضها الأخير كان يمدّني بالنشاط وبالقدرة على المشاكسة وقول الحقيقة مهما كلّفني الأمر. ستقول لي أنّني ما زلتُ، كذلك وسأجيبك بأنَّ النبرة تغيّرت، لقد انخفض الانفعال. كان قولي ينبض بالحماسة والرغبة بالتغيير وبات ينبض بالمرارة. والفرق شاسع بين القولين حتى ولو كانا متماهييْن في المضمون. لكن ما لنا وللمرارة الآن، سنعود إليها في الوقت المناسب. دعنا نتابع سياق ما كنا عليه أي تلك الفترة التي تلت إحالتي إلى التقاعد التي كنت فيها في أوج نشاطي ورغبتي في الكتابة.

هنا، عادت إلى صمتها ونظراتها زائغة كأنها تبحث عن نقطة ارتكاز تستند إليها كي تتابع. تركتها لصمتها ولم أتدخّل، وما هي إلا دقائق حيث سمعتها تقول:

_ ربما كانت كلمة "مرارة" غير دقيقة، والأصح هو كلمة أسى. وللحقيقة لا أدري تماماً كيف أصف القول في المرحلة الراهنة. لكن دعني أتابع القول قبل تحوّله والذي سنعود إليه لاحقاً وفي حينه. قلت لك إنه بعيد إحالتي إلى التقاعد كنت مفعمة حيوية ونشاطاً، ولست أدري إن كان لوجود والدتي ولمعاناتي معها أي دور في ذلك؛ كنت أهرب من تعلّقها بي إلى الكتابة التي كانت

هوايتي الرئيسية، وقد دام هذا الوضع لأكثر من سنتين كاملتين! كنت قد باشرت خلالها كتابة روايتي"والدتي ليست أمي" التي لم ترَ النور. تلك الرواية كانت قاسية جداً ،لأنني حاولت أن أنقل فيها الواقع بكل مرارته وصعوبته بالنسبة لي متجاهلة كليّاً ما كان وضع والدتي الحقيقي. كنت بعيدة جداً عما يعنيه الشعور بالوحدة. باختصار، كنت أعيش في دوّامة قائمة على نقيضين: الأنانية والشعور بالندم . أترك بيت والدتي ثائرة غاضبة، وأدخل بيتي محبطة حزينة وقلقة. ما كنت قادرة على العيش معها ولا بعيدة عنها. هذا الوضع دام إلى حين وقوع حادثةٍ دفعتني إلى حسم الأمر واتخاذ القرار بأن أنقل والدتي إلى السكن معي، وأن أشرف على الاهتمام بها و

وقبل أن تتابع، قاطعتها لأسألها عن ماهية تلك الحادثة. أغمضت عينيها ، وقالت :

_ صورتها ما زالت أمامي بوجهها المنتفخ والسواد يحيط بوجنتيها وعينيها. يا له من منظر أرعبني ووضعني مباشرة أمام سوء تحمّلي للمسؤولية!

لم تترك لي المجال لسؤالها عما سبّب ذلك لوالدتها، وتابعت وهي تهزّ رأسها:

_ حين رأيتها أدركتُ مباشرة أنها "وقعت" وارتطم وجهها بالأرض، وكنت على حق لأنها، ما إن دخلتُ عليها ورأيت ما

حلّ بها حتى قالت:" بنت الكلب دفشتني من الخلف ووقعتُ على وجهي." كانت تقصد الخادمة التي سارعت إلى النفي لتبرّئ نفسها. كذّبتها والدتي، وتابعت:" لا أريدها بعد الآن في بيتي حتى ولو عشت وحدي." قالت ذلك ورأيتُ دموعاً تكرج على وجنتيها. هذه الدموع التي خرجت من عينيْ تلك الإنسى الصلبة التي لا تنحني ولا تضعف والتي لم أرها يوماً في حالة انهزام، نخعتني وخضخضت كياني وولّدت قراري السريع وسمعت نفسي أقول لها:" لن أتركك بعد الآن وستعيشين معي. هيا سننتقل اليوم بالذات إلى بيتي." ثم توجّهت إلى الخادمة وطلبت منها أن تجمع ملابس والدتي وأدويتها كي ننتقل إلى بيتي، فما كان من والدتي إلا أن قالت:" ما عدت قادرة على رؤيتها، ردّوها إلى بلادها." كانت ، طبعاً تقصد الخادمة. تأكدت في تلك اللحظة أن والدتي لم تقع لأنها تعثّرت بشيئ بل إن الخادمة هي التي رمتها، فاتصلت بأحد أخوتي الذي أتى بسرعة وصطحب الخادمة إلى بيته ليؤمن لها السفر، وهكذا نقلت والدتي إلى بيتي حيث بدأت تجربة جديدة لم أعشها من قبل. تفرّغت كلّياً لها بعد أن ساعدني أخوتي بتأمين ممرضة تقيم معنا ومتفرّغة لرعايتها ليلاً ونهاراً . تلك الممرضة كانت خبيرة بشؤون كبار السن. وبعد أن راقبتها تعمل، صار باستطاعتي مغادرة البيت من وقت لآخر وأنا مطمئنّة، مع العلم أنّني كنت أقوم بذلك فقط للضرورة وذلك لرغبتي بتمضية الوقت كلّه مع والدتي لأعوّض عن قساوتي السابقة تجاهها.

صمتتْ من جديد، واغرورقت عيناها بالدموع . تنهّدت وتابعت:

_ كلّما كنت أخرج من البيت كانت تقول الجملة إيّاها :" لا تتاخّري." وهي الجملة التي سمعتها منها قبل أن أتركها لآخر مرّة وتتركني هي إلى الأبد. رحيلها هدّني، وأشعرني أنّني من دون جذور، أضعت البوصلة لفترة قبل أن أعود إليها من جديد عبر الكتابة. شغّلت الحاسوب، وفتحت الملفّ الذي يحمل عنوان "والدتي ليست أمي"، أعدت قراءته وغضبت من نفسي، وحاولت إلغاءه لما وجدت فيه من قساوة، لكنّني تريّثت كي أناقش نفسي أولاً، وبعد تحليل طويل توصّلت إلى حلّ يتّفق وقناعاتي بالكتابة، وهو أنَّ ما كُتب في المرحلة السابقة كان يعبّر عن حقيقة مشاعري، ومن الخبث أن ألغيه كي أظهر فقط ما كنت عليه بعد رحيل والدتي. غيّرت العنوان الذي أصبح:" رحلت والدتي بقيت أمي". وتابعت الكتابة من حيث كنت قد أوقفتها. لهذا السبب أتت الرواية تعبيراً صادقاً عما ينتابنا من مشاعر متناقضة تجاه من نحب، مشاعر تجتاحنا وفقاً للظروف التي نمرّ بها والتي تنقلنا من حال إلى حال. ولهذا السبب أتت الرواية مختلفة عمّا يكتب عادة عن الأم التي تظهر، في غالبية الروايات، كأنها منزّهة عن كلّ الصفات السيّئة التي هي من صلب المكوّنات المتناقضة لكلّ كائن بشري!

قالت ذلك وعادت إلى صمتها وهي مغمضة العينين، كأنها تستعيد كل تلك المرحلة. بالفعل، حين فتحت عينيها ونظرت إليّ، ابتسمت وقالت:

_ ظننت أن الكتابة عن أمي ستنهي تلك الحالة التي رماني فيها غيابها. كنت مخطئة في ظنّي ،لأن رحيلها وضعني أمام تساؤلات كبرى غيرت كلّ نظرتي إلى الحياة... حاولت الهروب من تلك التساؤلات بلجوئي إلى مسقط رأسي، بالعودة إلى منبت جذوري. قرّرت ونفّذت. لكنْ ليتني لم أنفّذ، فعودتي إلى ضيعتي حيث كان قد هدم بيتنا القديم وشيّد مكانه مبنى حديث أيقظت في داخلي حنيناً هدّ كياني ودفعني إلى العودة مسرعة إلى بيتي لأرتمي في حضن بيتنا القديم وأستنطقه عن كلّ سيرته التي نقلتها في روايتي الأخيرة " صورة على هاتف جوّال." لكنْ لا الكتابة عن أمي ولا الكتابة عن بيتنا القديم أنقذتاني من الحنين إليهما، لا بل دفعتا بهما إلى احتلال مساحة كبرى من ذاكرتي وهي مساحة لن يطالها النسيان أبداً.

قالت ذلك وضحكت قبل، أن تتابع:

إلاّ إذا أصبت بالألزهايمر في آخرتي! وقتها لا حول ولا قوّة. أمّا الآن، فلنعد إلى الجد لتوضيح المسألة وتحليلها؛ حين رحل والدي، لم أشعر باليتم ولم أغرق في الحنين، على الرغم من أن علاقتي به كانت جيدة جداً، هو الذي كان يتفهّم كل خطوة أقوم بها وفي بعض الأحيان يساعدني على تنفيذها. كنت أقرب إليه من قربي لأمي، فلماذا كان لرحيلها هذا الأثر على نفسيّتي والذي لم أشعر به بعد رحيل والدي؟ لم أجد جواباً على هذا التساؤل سوى أن السبب يعود إلى كوني قد تغيّرت بين المرحلتين؛ تركني

والدي في مرحلة كنت فيها في أوج نشاطي الاجتماعي والثقافي والعلائقي وال... باختصار كنت منفتحة على الخارج كما كان الخارج منفتحاً عليّ، ويحتلّ حيّزاً من حياتي التي كانت قائمة على ذلك التفاعل.

وحين ذكّرتها بأن تحوُّلات كبيرة قد رافقت مسيرتها بعد رحيل والدها، لم تتركني أتابع، وقالت:

_ صحيح، حدث ذلك بعد أن فقدت أبي، انتقلت من قول قوامه الكتابة في مجال الفكر والفلسفة والسياسة ووضع الإنسى وغيرها، إلى القول الروائي الذي وجدتُ فيه نفسي، وحيث أكون كاملة الحرّية في استخدام أيِّ قول آخر كي أصل إلى ما أبتغيه. هذا التحوّل يعني أنّني وجدت قولي الخاص، وهذا ما نوّه به صديقي العزيز موسى حين قال لي:" أحسدكِ لأنكِ وجدتِ قولكِ الخاص." بينما لامني البعض عليه مفضّلين لي البقاء حيث كنت في كتابة النص الفكري الثقافي المحض. لكنَّ قناعتي بهذا التحوّل كانت الأقوى وثابرت على هذا القول الخاص كخط رئيسي مع اللجوء إلى بعض التمارين الفكرية الثقافيّة من وقت لآخر. لكنَّ السؤال يظلّ قائماً، وهو لماذا تمّ ذلك التحوّل بعد رحيل والدي؟ هناك تفسيرات عديدة سأحاول أن أعرض بعضها ؛ أول ما يخطر على بالي هو مقولة قتل الأب التي نحاولها دائماً كما يقول فرويد. هل كان رحيله يعني هذا التمنِّي الدفين في أعماقي كي استقلّ تماماً وأكون سيّدة نفسي؟ ربّما، لكنْ ما علاقة هذا التحرّر

بتحوّل القول؟ هناك رابط غير واضح في ذهني، أشعر به مع عجزي عن تحويله إلى كلمات؛ هل هو اندفاعي إلى ممارسة الحرّية المطلقة في التعبير، والذي يعني انعتاقي من كل ما يسميه علم النفس "الأنا الأعلى"؟ ربما! لكن الواقع يقول إنّني بهذا التحوّل حقّقت رغبة دفينة كانت عند والدي، وهي أن يكون كاتباً وليس طبيباً ! لم يعبّر عن ذلك صراحة، لكني كنت أتلمّسه في مقالاته التي نشر البعض منها، محتفظاً بالبعض الآخر في حقيبةٍ اكتشفتُ ما في داخلها بعد وفاته. مقالاته تلك تنضح بالنَّفس الأدبي الرفيع، وتحاكي لواعج النفس الدفينة. قرأت تلك المقالات والخطب لمرّات عديدة وتأثرت بها، فهل شكّل ذلك عنصراً من العناصر اللاوعية التي دفعتني إلى اختيار واعتماد القول الروائي بعد رحيل والدي، كتحقيق لأمنيته الذي لم يحقّقها في حياته؟ لن أغوص أكثر في التحليل، وأكتفي بالقول إنني بذلك التحوّل قد وجدت قولي الخاص، وهذا يرضيني ويشبع نرجسيّتي، ويحقّق امتلاكي لذاتي وانسجامي التام مع هذه الذات. وباختصار، أقول لك إنّني، بعد رحيل والدتي كنت كمن فقد آخر ركيزة يتكئ عليها كي يتّصل بماضيه، كانت باب الذاكرة الحلوة الذي يطلّ على الضيعة وما تعنيه، وحتى على والدي الذي كنت أشعر، معها، أنه ما زال بيننا. قبل رحيلها هدمنا بيتنا القديم وأقمنا مكانه بيتاً جديداً كنتُ أمنّي النفس أن أسكنه مع والدتي التي بوجودها معي فيه تشعرني بالأمان وبأن لا شيء قد تغيّر. لكنّ رحيلها أفقدني آخر تواصل مع ذلك الماضي الجميل، وكما قلت لك، ما عادت

الضيعة تعني لي سوى مثواي الأخير. وهنا لا بدّ من التنويه والتعبير عن شعور الاعتزاز بكلّ من يدافع عنها، حاليّا، بوجه الهجمة التكفيريّة التي تجتاح المنطقة بأسرها والتي بعض فصائلها مرابطة في جرودنا. أنوّه وأثمّن، لأنّني وعلى الرغم من ابتعادي عن ضيعتي، يظلّ ترابها يناديني. هو الذي شكّل مهدي، وكلّي رغبة وإصرار بأن يكون لحدي.

وحين حاولت أن أبعدها عن هذه المشاعر التي غاصت فيها ، أجابت كأنها لم تسمعني:

_ هل تعلم ماذا فقدت برحيلها؟ فقدت عينيها الجميلتين اللتين بهما كنت أرى نفسي. عيناها كانتا تَرياني الأجمل والأذكى والأبهى بين كل ابناء جنسي. عيناها تلك أو بالأحرى نظرتها تلك منحتني ثقة كبيرة بذاتي، ثقة مكّنتني من اجتياز كلّ الصعوبات التي اعترضتني، ثقة الانطلاق في ممارسة حرّيتي وكسر كلّ التعاليم الخاضعة للتقاليد البالية. نظرتها تلك منحتني جناحين أعلو بهما عن كلّ التفاهات التي تشغل المرأة العاديّة، لتحوّلني إلى إنسى بكلّ ابعادها، وتنشلني من الغوص في القشور على حساب اللب الصافي الحقيقي. أفتقد بغيابها هذا الشعاع في نظرتها إليّ والذي مكّنني من أن أكون ذاتي، من دون أقنعة، في كل المواقف والخيارات، على الرغم من التحوّلات التي تفرضها السنون، وبخاصة فيما يتعلّق بالمظهر.

قالت ذلك وابتسمت، إشارة منها إلى أنّني فهمتُ ماذا تقصد، وسارعتُ إلى القول إن روايتها "الصفحة الثانية" هي كلّها حول هذا الموضوع، لكنها أجابت:

_ ألم تلاحظ أن غالبية النساء بتن يشبهن بعضهنّ بعضاً بسبب التلاعب بملامحهن؟ الوجنات والجبهات والشفاه وما فوقها وما حول العيون و... كلها واحدة عند غالبيتهنَّ. لكن منهنَّ من تحسّن وضعهنَّ ومنهنَّ من باتت وجوههنَّ كوجوه الدببة الفطساء.

قالت ذلك وانفجرت من الضحك. لكنني لم أصمت وقلت لها إن الرجال أيضاً يلجأون أيضاً إلى عمليَّات التجميل وصبغ الشعر وغيرها. ضحكت أكثر، وقالت:

_ لا أنكر ذلك، لكن من تسمّيهم رجالاً هم بالواقع "رجيلات" تماماً، كما أن النساء اللواتي يلجأن إلى التزوير في منظرهن لم يرتقين إلى مستوى الإنسى كما أفهمها وكما نظّرت لها، بل بقين ضمن مفهوم ال"امرأة" أي مؤنث ال"مرء" الذي يعني أياً كان أو ال "لا شيئ" .

وحين سألتها إن كانت ضد التقدم العلمي وبخاصة الطبي منه أجابتني بسرعة:

_ لست ضد التقدّم العلمي وبخاصة الطبّي منه لكنّني لست مع التقدّم الطبي الذي يطاول المظهر فقط، واليوم يشتغلون على هذه الفكرة، وقد ينجحون في محاولاتهم لتجديد كل خلايا الجسم،

وبهذه الطريقة يعود الشباب إلى من يريد استعادته بشكل غير مشوّه، وإن عشت إلى تلك المرحلة لن أكون ضدّه وربما لجأت إليه، لأنّ استعادة الشباب بكل أبعاده داخلياً وخارجياً لا تُسمى تشويها كما عمليات التجميل الحالية لأنها تعيد الفرد إلى ما كان عليه في شبابه من دون تعديل في مظهره، وهكذا يعود يشبه ذاته، وليس نسخة عن شكل بات واحداً تقريباً في الوضع الحالي.

صمتت قليلاً، ثمّ قالت:

_ فلنقفل الموضوع، لأنه لا يهمّني بشكل خاص، إلاّ أنه جعلني لا أميّز بين امرأة وأخرى إلاّ بصعوبة، وسأعود بك إلى الحالة التي مررت بها بعد فقدان والدي وكيف تبدّلت مشاعري بين حال وحال، وهنا تحضرني فكرة سأحاول عرضها أمامك، علّك تساعدني في بلورتها وتوضيحها: أعتقد أن للمكان أهميّة كبرى في عمل الذاكرة.

قالت ذلك وأغمضت عينيها، كأنها تبحث عن كلمات تمكّنها من نقل فكرتها. تركتها تغوص في ذاتها، ولم أتوجّه إليها بأي سؤال. لم يدم صمتها وصمتي طويلاً. فتحت عينيها، وقالت:

_ أهميّة المكان تعطيني الجواب الذي كنت أبحث عنه. إن بقاء المكان بعد رحيل الشخص يساعدنا على عدم النسيان.

قلت لها إنني لم أفهم فكرتها جيّداً، لكنها تابعت كأنها لم تسمع تعليقي:

_ بعد وفاة والدي بقي المكان على حاله؛ عدنا، بعد دفنه وتقبُّل التعازي إلى بيته في جونيه، ولم نقم بأي تغيير داخله بحيث بقيت غرفته وسريره وكل ما كان يتعلق به، في أماكنها وكنت أراه دائماً من خلالها. وبيت الضيعة كان لا زال قائماً رغم ترهُّله وكان غياب والدي يملأه بحضورٍ شبه سحري، كان حاضراً كلما زارنا الأهل والأصدقاء كأن صورته وحضوره هما من صلب ذلك المكان وتشكلان معاً وحدة عصيَّة على الانفصام . باختصار كنت أينما توجّهت في الأماكن التي بقيت على حالها، بعد رحيله، أراه، وأحيانا كثيرة كنت أحدّثه واستمتع بابتسامته المضيئة.

قالت ذلك وابتسمت ليسود الصمت بيننا لدقائق، قبل أن تعود تقاسيم وجهها إلى الجدّية وتقول:

_ برحيل والدتي الوضع تغيَّر كلياً؛ فبعد مراسم الدفن والتعزية عدت إلى بيتي الذي سكنته امي معي لفترة قصيرة قبل رحيلها والذي كنت قد جهَّزت،لها، فيه غرفة، عدت إلى عالمي لأجد نفسي وحيدة في هذا الفضاء الذي كان يملأه وجودها ، شعرت بفراغ كبير، فراغ اتسع أكثر حين أعدت مع الخادمة ترتيب البيت كما كان قبل استقبال أمي فيه لأشهر قليلة. بتُّ لا أراها إلاّ صباحاً، أراها قبالتي والممرضة تهتم بإعطائها ادويتها وتناولها فطورها الذي أخذت ترفضه في آخر أيامها لتكتفي بجرعات قليلة من الحليب. وحتى الآن، كلما جلست ، صباحاً ، في الصالون لاحتساء القهوة ،تكون معي.

عادت إلى صمتها وقبل أن تعاود الكلام، رأيتُ دمعتين تكرجان على وجنتيها. مسحتهما، وقالت:

_ لا أعتقد أنك تدري ما فعله بي غيابهما، وبالأخص غياب أمي؛ تغيّرتُ كلياً وبتُّ لا أتعلّق بشيء على الإطلاق. حين افرغت بيتها من أثاثه وكل ما فيه وأهديته لأحد المحتاجين كرحمة عن نفسها ونفس والدي، عدت إلى بيتي، جلست على مقعدي في الصالون وجال نظري على محتويات البيت من عفش ولوحات وسجاد وكل ما كنت أهتم به من زينة وغيرها. نظرت إلى كل ما يحيط بي وفجأة رأيت الفضاء فارغاً، كما سيكون بعد رحيلي. ساد الفراغ للحظة تغيرتْ بعدها كل نظرتي إلى الحياة بحيث أخذت رويداً رويداً أغيّر كل نمط حياتي التي استعادت انبناءها على ركائز ومكوّنات مختلفة كلياً عمَّا كانت عليه؛ بت متسامحة مع الجميع رامية وراء ظهري كل ما كان يوتّرني ويغيظني . وهذا ما ساهم بشكل أساسي في إسقاط الكثير من العلاقات والاحتفاظ بالقليل الصادق منها، هذا القليل الذي أكتفيت به هو حقاً إكسير الحياة الحالية الذي يغبطني لأنه ،حقاً، يجسّد الصدق والأمان. ولهذا السبب اكتفيت بالقليل من الأصدقاء الصدوقين وبأشقائي وشقيقتي وأولادهم. بات هذا القليل كافياً لأن صدقه يملأ كلّ الفراغات ويبعدني عن كل التفاهات وإهدار الوقت مع من لا يستحقه. بعض الذين سقطوا من الغربال باتوا يتهكمون على وضعي الحالي ويقولون إنني متقوقعة في صومعتي. آه لو يدرون متعة هذا التقوقع الذي يشبه الاستحمام اليومي بالنور! لكنني لا

أبغي محاكمة أحد، وليتمتع كل واحد منا بما هو عليه شرط أن يكون مقتنعاً حقاً بحسن اختياره.

_ وهل أنتِ مقتنعة حقاً باختيارك؟ سألتها بنبرة متحدّية كي أستنتج من ردّة فعلها مدى صدقها . وأتى جوابها بمنتهى الهدوء مع ابتسامة تملأ وجهها :

_ لستُ بحاجة إلى إقناع أحد بما اخترته من نمط حياة وعلاقات و...ولا أحاكم أحداً على خياراته. وما انتقد به، أحياناً الآخرين هو من باب التسلية مع اقتناعي بأن انتقادي لا يغيّر شيئاً في الواقع.

_ ألهذه الدرجة بتي لامبالية؟

أتى جوابها سريعاً وهي تضحك بصوت عالٍ:

_ ولماذا لا تقول عاقلة أو ناضجة أو حكيمة أو...

لم أتركها تكمل، وقلت:

_ أو متعالية.

_ كما تريد، أجابتني، من دون أن تفاجأ بتعليقي السريع والخبيث.

صمتنا معاً للحظة، قالت بعدها:

_ أما تعبتَ بعد وأنتَ تدوّن على أوراقك كل ما أتفوّه به، حتى ولو كان تافهاً؟

لم أجبها ، فتابعت:

_ أعتقد أنّني أتعبتك، فما رأيكَ لو تابعنا الحديث في جلسة ثانية؟

كنت قد تعبت فعلاً وأتاني اقتراحها كما أرغب، فهززت برأسي موافقاً وقلت:

_ سأغادر الآن وآمل بلقاء قريب. وأجابتني من دون تردد:

_ إلى لقاء آخر إن شاء الله، والآن سأهتم بكلبي الصغير ريكو الذي اشتقت إليه. صمتت قليلاً ثمّ قالت:

_ سأتصل بكَ.

قالت ذلك لتفهمني أنها هي التي ستحدّد الموعد القادم.

_ كما تريدين، أجبتها باقتضاب.

نهضت من مقعدها، ومدّت لي يدها، فاستودعتها وتواعدنا على لقاء قريب .

بعد هذه الجلسة الطويلة معها ، تركتها معللاً النفس بلقاء آخر يمكّنني من استجوابها بشكل معمّق لأكتشف ما توصّلت إليه تلك الإنسى بعد تجربة حياة حرّة ومتحرّرة من جميع القيود كما روتها لنا في كتاباتها ورواياتها وبالأخصّ في ما وفّره لي موسى من سيرتها وما سمعته منه عنها. تركتها معلّلاً النفس في استجماع الأسئلة الأكثر إحراجاً لأواجهها بها في لقائنا القادم الذي كنت آمل أن يكون قريباً جداً. لكني تركتها ويراودني شعور ملتبس لم اتبين معناه إلا حين وصلت بيتي واكتشفت أنّني نسيت أوراقي وقلمي وكل عدّة التسجيل، عندها. طلبتها عبر الهاتف كي ألفت انتباهها إلى ما تركته في بيتها وأرجوها إن تحافظ عليه لترده لي في لقائنا القادم. رن الهاتف لفترة طويلة، لا جواب. أقفلت الخط وطلبت رقمها من جديد ظنًّا مني أنني أخطأت، ربما، في الترقيم. لكن ومن جديد رنّ الهاتف لفترة طويلة ولا جواب. أقفلت الخط وأنا أقول بصوت عالٍ: كيف تمكنتْ من مغادرة بيتها بهذه السرعة، سأطلبها على رقمها الخليوي. وأتاني الجواب:" الخط مقفل، الرجاء الاتصال لاحقاً".

_2_

فور مغادرة ذلك الشاب الصحافي انتبهت إلى أنه ترك أوراقه وآلة التسجيل، على الطاولة وتساءلت :"هل نسيها فعلاً أو تركها عن قصد معلّلاً النفس بلقاء قريب معي كي يكمل ما بدأه من استجواب يشبه التلصّص على حياتي الخاصة، وهو أمر ما عاد يزعجني لكثرة ما اعتدت عليه من سلوك بعض قرّاء رواياتي، ومن دون تمييز بين الجنسين. راودني شعور بالاستماع إلى ما سجَّل على آلته وقراءة ما كتب على أوراقه، لكنْ سرعان ما ابعدت هذا الشعور عني، ولملمت كل ما تركه ووضعته في دُرْج من مكتبتي، وعدت إلى ذاتي، وحاولت الإبحار فيما جمعته خلال السنين الماضية من مشاهدات وتجارب وعلاقات وصداقات ونزاعات وخيانات و... حاولت أن أنسى كل السلبيات لأتوقف فقط عند الإيجابيات في علاقاتي؛ وأول من حضر أمامي، كان الصديق الغالي موسى الذي كان يعمل، في تلك الفترة بعد تقاعده من الجامعة، في إدارة بعض المواضيع الخاصة في مجلة الحسناء. وما كدت أتخيل صورته أمامي حتى رنَّ جرس هاتفي، وسمعت صوته :" ألووووو ماذا تفعلين؟"

_ كنت أفكر بك. أجبته. ضحك وأجابني :

_ هيَّا نحن بانتظارك .

_من نحن؟

_ انا وصديقنا محمد العبدالله الذي يرغب في إجراء حوار معك حول روايتك: "رحلت والدتي بقيت أمي "، لينشره في مجلة الحسناء .

_ شاعرنا الكبير الذي أقدّر جداً شعره وكل كتاباته و...

وقبل أن أتابع أجابني :

_ ستعبرين عن كل ما تريدين هنا . نحن بانتظارك.

أقفلتُ الخط وتوجهت مباشرة إلى بيروت إلى منطقة قريطم، حيث مقر "الحسناء" . كان السير غير كثيف وتمكنت من الوصول بوقت قصير. استقبلاني بمحبة كالعادة في كل لقاءاتنا وبادر موسى إلى القول:" هيّا انتقلا إلى الغرفة الثانية لإجراء الحوار ". ثم نظر إلى محمد وقال :" *انتبه لتصرفاتك معها أنا بغار*"، وأجابه محمد "*شو إلك فيها أكتر منا؟ غار لتشبع*" ضحكنا جميعاً لهذا المزاح المحبَّب وانتقلتُ مع محمد إلى غرفة ثانية، وتم الحوار بيننا على أحسن ما يرام .

كان موسى ينتظرنا في مكتبه ، وحين دخلنا عليه توجَّه إلى محمد قائلاً: انتهت مهمتك :"*فارقنا بريحة طيبة*". ضحك محمد وضع ذراعه على كتفي، قبَّلني وانصرف هو يقول:" *انتبهيلو هيدا واحد*

عكروت". وأجبته :" على من تقرأ مزاميرك يا داوود؟". شوّح لي بيده من خارج الغرفة، وتابع طريقه.

حين أصبحنا وحدنا، طلب موسى القهوة وسألني :" ماذا تفعلين هذا الصيف؟"

_ سأسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية لزيارة أخي، لأنه لا يستطيع أن يزورنا هنا في لبنان هذه السنة.

_ وأنا أيضاً سأزور ابنتي ليلى في أميركا، وسأحضر حفلة تخرُّجها. لكنْ للأسف كل واحد منا سيكون في ولاية، ولن نلتقي هناك.

_ كلانا لا يمكث هناك إكثر من شهر،وسنعود إلى لقاءاتنا هنا من جديد.

_ ومتى ستسافرين؟

_ لم أحدد الوقت بعد.

_أنا أغادر بعد غد، فالنمضِ هذا النهار معاً.

أمضينا ذلك اليوم معاً وتوادعنا على أمل اللقاء بعد عودة كلينا من أميركا .

لم أُطل المكوث في اميركا، وعدت إلى لبنان قبل موسى . لكنه حين عاد اتصل بي، وأخبرني عن نجاحات ابنته وكم هو فخور بها، وتابع:

_ لكنني لم استسغ الطعام الأميركي لدرجة أنني فقدت شهيّتي هناك وعدت نحيفاً . وسارعت إلى القول:

_ يعني " شبشبت" في أميركا.

ضحك، وأجابني:

_ ولكني ما زلت فاقداً للشهيَّة.

_ لكنك ستجدها من جديد حين نلتقي.

ضحك وقال :" متى؟

_ اليوم . نلتقي في مقهى ال" ABC" في ضبيّة.

وأقفلنا الخط بعد أن وافق، واتفقنا على اللقاء حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر.

وصلتُ الساعة الخامسة، ووجدته بانتظاري جالساً في إحدى زوايا المقهى المطلَّة على الطريق العام، وبيده كتاب وأمامه على الطاولة كتابان . وصلت إليه فانتصب وتقدَّم نحوي وهو يقول كلمته التي طالما اعتدت سماعها منه حين نلتقي . قالها وهو يرفع ذراعيه لضمّي إلى صدره : "عبّوطة." ضممته بدوري، وجلسنا

وجهاً لوجه. نظرت إليه، وانتابني شعور بالقلق، إنه فعلاً شاحب . تجاوزت شعوري هذا، وسألته: ماذا كنت تقرأ؟

ابتسم وجمع الكتب الثلاثة، وقدمها لي وهو يقول :" إنها لك . انجزتها قبل سفري ، لكننا لم نلتقِ قبل سفرنا إلى أميركا."

أخذت المجلَّدات وقرأت:" إدمون هوسرل.

مباحث منطقية

ترجمة موسى وهبة."

هنأته على هذا الإنجاز القيِّم واعدةً إياه بأني سأقرأ ترجمته هذه بأقرب وقت. وانتقلنا إلى مواضيع أخرى، وأول ما خطر ببالي هو أن أسأله عن رحلته الأخيرة إلى الولايات المتحدة الأميركية، وقلت:

_ هاتِ أخبرني كيف وجدت أميركا؟

_ بلاد ضخمة، لكنهم لا يجيدون صنع الطعام لدرجة أنني هناك فقدت كل شهيَّتي.

_ والآن، استعدتها هنا؟

_ لا. وهل ترين كم أصبحت "*سمباتيك؟*".

_ فعلا، لكني أفضّلك أقل ضعفاً. الضعف " يختير"، ويفقدنا وسامتنا.

_ أما عدتُ ، بنظرك، وسيماً؟ قالها وهو يضحك، ثم تابع : ما زلت وسيما للكثيرات غيرك.

ضحكنا معاً قبل أن يسألني :" ماذا تشربين؟"

_ إنها ساعة ال"بيرة". ما رأيك؟

لم يجبني رفع يده، وأشار للنادل أن يأتي إلينا.

حضرت البيرة ، وبعد أول جرعة، سألني: هل تكتبين؟

_ أحضِّر نفسي لكتابة رواية جديدة تحت عنوان "أيلول".

هز برأسه ليقول لي إنه فهم ماذا أقصد وقال:

_ عنوان جميل ، لا تضيفي إليه ولا كلمة.

_ أنت تعلم أن رأيك مهمّ بالنسة لي . سأثبّت العنوان، وأباشر الكتابة.

_ وأنا بصدد جمع كل ما كتبت من أبحاث كي أنشرها .

_ هذا عمل جيّد. لا تبطئ به. دعنا نستفد.

_ سأحاول. لكنني أشعر بالتعب.

_ لماذا لا تجري بعض الفحوصات الطبّية ، ربما وصفوا لك بعض المنشِّطات و...

هزّ برأسه ، رفع كأسه وقال: "بصحَّتك" .

أجبته بالمثل، وانتقلنا إلى مواضيع أخرى متنوعة حول كل ما يدور في البلد سياسياً وثقافياً و... وانتقدنا، كعادتنا، كل ما هو دائر حولنا لأكثر من ساعتين قبل أن ينظر إلى ساعته ويقول:" دقَّ الجرس." ثم أمسك يدي وتابع:" نلتقي قريباً"

افترقنا وعدت إلى بيتي وصورته الشاحبة ترافقني وتشغل بالي على حاله. لكنْ سرعان ما انشغلتُ بأموري الخاصة وابتعدتْ عني تلك الصورة، لأستعيد وجهه العاديّ وتمنياتي بأن تكون كل ظنوني خاطئة.

غاب لفترة من دون أي اتصال، واحترمت ذلك كما هي العادة بيننا. لكني لم أصمد طويلاً، وبادرت أنا بالاتصال به . وحين سمعت نبرة صوته، أدركتُ أن الأمور ليست جيدة. تخطَّيت شعوري هذا وسألته عن حاله وأجابني بلهجة مكابرة ملموسة :

_ نتائج فحوصاتي الطبية ليست جيّدة.

_ ماذا تقصد؟ اسرعت إلى سؤاله.

وأجاب بكل هدوء:

_ أظهرت الفحوصات ورماً خبيثاً في الرئة.

ولكي أخفي انفعالي أجبته مذكِّرة إيّاه بمرض شقيقتي بسرطان الرئة، منذ أكثر من ثلاثين سنة، وكيف نجت من المرض، وتغلبت عليه، ثم تابعتُ:

_ متى تخضع للعملية؟

وأجابني أن لا عملية في الوقت الراهن، وأنه سيخضع لعلاج كيميائي أولاً .

لم افهم لماذا ولم أسأله. لكنه تابع وقال:

_ سيحاولون تصغير حجم الورم قبل اللجوء إلى الجراحة، حيث سيتم استئصال إحدى الرئتين بالكامل.

مادت الأرض تحتي، لكني تمالكت أعصابي وأجبته :

_ يستطيع المرء أن يستمر في الحياة برئة واحدة، وأعرف حالات عديدة هكذا.

قلت ذلك اعتقاداً مني أني أشجّعه ، لكنّه ضحك، وأجاب:

_ صاحبنا فلان ، تعرفينه، يعيش منذ أكثر من عشر سنوات برئة واحدة!

وكي أقفل الموضوع، لأنني شعرت أنني أعجز من أن أسايره في تفاؤله أو ما يظهره من مكابرة، وبأن كلماتي ستكون غير صريحة، سألته:" متى نلتقي؟"

اتفقنا على المكان والزمان، وأقفلت الخط.

في الوقت المحدد ذهبت للقائه ووجدته جالساً في زاوية المقهى وامامه كأس وهو يقرأ في كتاب. وقبل أن أصل اليه، رفع عينيه كأنه شعر بوجودي. انتصب في مكانه وهو يفتح ذراعيه من دون أن يقول شيئاً . وصلت أليه وضممته إلى صدري وضمني إلى صدره من دون أيّ كلمة . جلست قبالته فابتسم وهو ينظر إليّ. احترتُ بما أباشر الكلام ، لكنه أنقظني من تلبكي، وقال:" منيح ، كل شي منيح." وأتى جوابي سريعاً :"*أكيد كل شي رح يكون منيح ."*

لم يعر اهتماماً لجوابي سوى بابتسامةٍ أنارت كل وجهه، وسأل:"ماذا تشربين؟"

طلبت القهوة، وطلب كأس ليموناضة مع الكثير من مكعَّبات الثلج.

لم أعلِّق على طلبه هذا غير المعتاد. لكنه عاجل إلى القول." *الكيميو بنشف وبمرمر التم وما برتاح إلَّا وقت بمص قطعة تلج."*

_ علاجه إذاً سهل. عاجلت إلى القول وأنا أفتعل اللامبالاة. وتابعت، كي أغير الموضوع:" ماذا تقرأ؟"

_ لا اقرأ جديداً في الوقت الحالي لأنني بصدد جمع كل ما كتبت لنشره قبل...

لم يكمل جملته، وسارعت إلى القول:

_ أنا سبقتك إلى ذلك، لأنني أقمت "سايت" خاص بي على ال "نت" وأنزلت فيه كل كتبي، والكثير من الدراسات والأبحاث المنشورة في أماكن مختلفة. ولم أنسَ تنزيل صور ما بقي في بيتي من اللوحات التي رسمتها خلال هذه السنين، وبعد أن تخليت عن فكرة المعارض

ابتسم وهنأني على هذه الفكرة، وسألني :" وبكم الدخول إلى هذا الموقع؟"

_ الدخول مجّانّي ومشرّع لكل من يرغب في القراءة، حتى إن الرواية التي أفكر بكتابتها الأن، سأنشرها مباشرة على ال"سايت" من دون دار نشر.

_فكرة ممتازة ، وماذا سيكون عنوان هذه الرواية؟

_ "ايلول." قلتها وصمتُّ بانتظار ردَّة فعله. لكنه ابتسم وأجاب:

_ عنوان جميل، لا تغيّريه ولا تضيفي إليه أية كلمة أخرى. وأجبته:

_ سبق وقلت لي ذلك في جلستنا الأخيرة ؛هل نسيت.؟

صمت قليلا، ثم ضحك وتابع ." لم أنسَ لكني أتأكّد أنك لم تغيّري رأيك."

وأجبته ضاحكة:" يبدو ان الألزهايمر بات شغّالاً عندك."

ضحك بدوره وأجاب :" الألزهايمرهوأفضل علاج للسنين الأخيرة من العمر". وتابع كي يغيّر الموضوع:

_هل قرأت ثلاثية ميخائيل نعيمة "سبعون"؟ وأجبته:

_ نعم قرأتها. لكنها لم تفدني بشيء، لأنها تسرد سيرة الكاتب حتى السبعين. وهذا عمل قمتُ به في كل رواياتي. أمّا الآن، أغوصُ في المجهول وفي الأسئلة الكبرى.

أمر جيّد، أجابني، وتابع:" هل باشرتِ الكتابة؟"

_ إنني أضع التخطيط العام الآن، ولست أدري إلى أين سأصل! لكن دعنا من ذلك وأخبرني عن وضعك وهل تتحمّل العلاج ؟

_ أتحمَّله ولا يزعجني إلّا بهذه المرورة في الفم ، لكنَّها بسيطة .

_ وما هي الخطوة التالية؟ متى ستخضع للعملية الجراحية؟

_ حين يصغر حجم الورم قليلاً ويبدو أن الأمر سريع.

_ ممتاز. وحين يستأصلون الورم، ستكون كمن وُلد من جديد ولو برئة واحدة!

ابتسم، وهزَّ برأسه من دون أن يقول شيئاً. فصمتُّ بدوري لا أدري كيف أغيِّر الموضوع ولم يمرَّ بذهني إلّا زوجته صفيّة وابنته ليلى وابنه أمين ، فتمسَّكت بهم وأخذت أسأله عن كل واحد منهم . وأجابني إن صفيّة ممتازة وترعاه بشكل جيد جدًّا، وإن أمين وليلى يتابعان أشغالهما، ويزورانه كلما سمحت لهما الفرصة.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن بعض الأصدقاء، وتوقَّفنا عند الصديق الغالي محمد العبدالله . توقَّفنا، حين أخبرني موسى أن محمد مريض، وأنه يُعالج وقد فقدَ الكثير من وزنه وحالته سيئة، وإنه مصاب بورم خبيث في الرئة. أُصبتُ بالصدمة والتلبُّك في الوقت نفسه، لكنّي تمالكتُ نفسي وحاولت تشجيع موسى، وقلت إن محمد يكثر من شرب الكحول وإن كبده حتماً في حالة سيّئة وتابعت :" انت مختلف وستنجو، لأنّك كثير الاهتمام بصحَّتك وطعامك و... وكل ذلك يمنح الجسم مناعةً تساعده على مقاومة المرض وستنجو أنا متأكِّدة."

ابتسم ولم يجب. لكنّه أمسك يدي وقبّلها، وقال :" حان الوقت، إلى لقاء قريب."

افترقنا كل منّا باتجاه. لكن صورة موسى وخَبَر مرض محمد وحالته المتدهورة لم تفارقاني، إلى أن وصلت إلى بيتي، حيث استقبلني كلبي ريكو برقصته المعتادة كلما عدت إلى البيت، وأنساني لفترةٍ كل الخارج . لكنْ سرعان ما عاودتني الأفكار السوداء لترميني في حالة أرقٍ مزعج. لكني داويته بحبَّة منوم نجتني من إزعاج الأرق لترميني في دوّامة من الكوابيس.

مضى أسبوع على لقائنا ولم يتصل بي موسى، فقلقت عليه، وحاولت الاتصال به . ردَّت زوجته وطمأنتني أنه بخير ثم قالت :" هيا كلميه، إنه مستلقٍ على الكنبة. كلمني، وأخبرني إنه سيدخل المستشفى في اليوم التالي لإجراء العملية.

_ ممتاز ، قلت له، هذا يعني أنك شارفت على الشفاء.

ضحك وأجابني بلامبالاته العاديَّة: "انشاالله، هل ترين ذلك؟"

ومن دون تردُّد أجبته إنني متأكَّدة وإنني سأزوره بعد العملية الجراحية وإنه سيعود إلى حياته العادية.

انتظرت ثلاثة أيام، واتصلت بالمستشفى، فأجابت زوجته، وأخبرتني إن العملية نجحت وإن موسى بخير. اطمأننت وقررت أن أزوره في اليوم التالي.

دخلت غرفته متهيّبة وفوجئت أنه ليس في السرير، بل كان يجلس على كرسيٍّ والبسمة على وجهه. فرحت به وقبَّلته على جبهته

قبل أن أجلس قبالته ليخبرني إنه بخير، ولا يشعر بأيّ ألم، وإنه سيغادر المستشفى قريباً جداً لأنه لم يعد بحاجة إلى البقاء تحت المراقبة وإنه سيتابع العلاج.

إطمأننت بحذر وحاولت متابعة الحياة العادية، لكنْ يبدو أن أيلول كان مصرّاً على متابعة مساره، لأنه في أحد الصباحات التي ما عدت أذكر تاريخها، فتحت الفيس بوك لأجد صورة تظهر حفل تكريم لمحمد العبدالله في دار الندوة. كان موسى في الصورة . لكن ما أذهلني هو نحول محمد الذي بدا يعتمر قبعة ،وعلامات الشحوب وقلّة الحيل على وجهه. تأملت كثيراً في الصورة، وفرحت لهذه اللفتة الطيّبة من قبل أصدقاء محمد.

بعد أيام.... قرأت خبر رحيل محمد. لقد انتصر أيلول، وهوت تلك القامة الجميلة! انتهى محمد، حصده أيلول وتوقّف الشعر ال"*غير شكل*" . هوت تلك القامة وغاض بريق تلك النظرة النسرية إلى الأبد. انتصر الموت على من لم يهبه يوماً فمحمد كان من القلائل الذين عاشوا الحياة وكأنها لا تعاد مرتين، تفلت من كل الفرامل العقلية والحسّية والشبقيّة و الغرائزيّة و... لهذا أتانا بشعر مميّز لا يليق إلّا به . وكتبت على الفيسبوك:" محمد، أودّعك بدمعة وغصّة."وهكذا وقعت ورقة عزيزة أخرى من شجرة الصداقة لتبعد عنّا ذلك الزمن الجميل خطوة أخرى إلى الوراء.

أحزنني رحيل محمد ،وقرّرت أن أقتنص الفرح من جديد قبل أن يُكمل أيلول مساره الحتمي. قرّرت ونفّذت: لم أنتظر طويلاً بعد هذا الفراق الأخير، وقرّرت أن أدعو موسى وبعض الأصدقاء من محبّي موسى إلى تناول الغداء معاً عندي في البيت. اتصلتُ بهم ورحَّبوا بالفكرة وحدّدنا اليوم المناسب قبل أن أخبر موسى. وحين اتصلت به لأخبره، رحَّب بدوره بالفكرة وسألني :" هل عندك عرق بلدي أم أجلب معي زجاجة؟" أجبته أن بيت السبع لا يخلو من العظام وأنَّ ما عليه إلَّا أن يأتينا فقط بطلته البهيَّة من دون أن يجلب أي بشيء.

في اليوم المحدّد تفحّصت ما عندي من مشروب ووجدت زجاجة نبيذ أحمر ممهورة بإسمي، وكنت قد حافظت عليها من سنين عديدة. فرحْتُ بها وقلت لنفسي:" هذا يومها ، لمن سأفتحها إن لم يكن لموسى؟" أخرجتها من مكانها بين الزجاجات الأخرى ووضعتها على الطاولة في الصالون، وأضفت حولها بعض المقبِّلات قبل أن يُقرع الباب ليدخل منه أعز الأصدقاء: يسرى وهنادي ووليد، وأخيراً موسى الذى غمرته بين ذراعيّ وهوفعل مثلي، قبل أن نتوجَّه جميعا إلى الصالون. وقبل أن نصل، سأل وليد:"أين ناصيف؟"

_ اتصل البارحة واعتذر، أجبته .

وبعد أن جلسنا كلٌّ في مكانه، نهض موسى واتجه نحو الحائط المملوء كله بلوحاتي. توقف عند اللوحة الأخيرة وسألني:" هذه

اللوحة هي آخر ما رسمته كما أعتقد، لأنني لا أعرفها." وحين أجبته ب:"نعم" توقف طويلاً أمامها وأثنى على جماليتها وقال:"ما همُّ غزّة من هدير البحر." ثم جال بنظره على مجموعة اللوحات مجدّداً وعلّق:" المراحل الثلاث." ثم عاد إلى مكانه، ونظر إلى الطاولة وسأل:" أين العرق البلدي؟"

_ لا عرق اليوم ،أجبته، لأن الإطباق التي أحضرتها تتماشى أكثر مع النبيذ الأحمر. ثم إن الطقس بارد والنبيذ هو أفضل ، نترك العرق البلدي إلى مناسبة أخرى في الصيف.

لم يعلِّق على إجابتي إلا بعبارة:"كما تريدين." ثم انتصب وتوجَّه إلى الطاولة وقال علينا أن نفتح القنينة ونتركها لفترة قبل أن نشرب منها، وتابع بالفرنسيةil faut la chambrer : وافقناه الرأي، وطلبنا منه أن يقوم هو بالمهمة . أقترب من الطاولة ورفع الزجاجة بيده، وأخذ يتفحَّص ما هو مكتوب على الورقة الملصقة بها . وما هي إلا لحظة حيث سمعناه يقول متوجِّهاً نحوي:" مين هوّي *العكروت* اللّي هداكِ اياها؟ وبإسمك أيضاً ." وأجبته بسرعة:" مش مهم من أهداني الزجاجة ، الأهم هو لمن تفتح، وكم من الوقت احتفظت بها بانتظار هذه المناسبة؟" وافقني الجميع الرأي، وأقتنع موسى بذلك وفتح الزجاجة وهو يبتسم . أمّا يسرى فكانت منهمكة بتشغيل عدستها لالتقاط كل اللحظات من هذا اللقاء الحميميّ من دون أن تتوقف عن إسماعنا تعليقاتها الذكية وقهقهة ضحكتها الطفولية. شربنا الأنخاب وتعدّدت

مواضيع الحديث بيننا ويسرى لا تتوقف عن التقاط الصور بنهم، كأنها حدست أن تلك الجلسة لن تتكرَّر أبداً . وقد اسرَّت لي فيما بعد أنها كانت تحاول التقاط كل انفعالاتي . يا لها من صديقة **!!!**

حان وقت الغداء وانتقلنا إلى غرفة الطعام، وفرحتُ جداً أن احد الأطباق التي أحضرتها كان من "*أكلات موسى المفضلة*" كما صرَّح. استمتعنا بالطعام، وتابعنا شرب النبيذ الذي ساعدنا على فك عقد ألسنتنا بحيث لم نرحم أحداً من المتطفلين على عالم الثقافة والقول. طالت الجلسة التي أنهاها موسى بقوله:"*إذا خّلصتو أكل وتهشيم بالناس خلّينا نرجع عالصالون.*" وافقناه الرأي وكرجت قهقهة يسرى قبل أن نعود إلى جلستنا الأولى. لكنْ ما هي إلَّا دقائق حتى عاد موسى وقال:" أريد أن أرتاح قليلاً فهل من مانع لديكم؟" وأجبته مباشرة:" هيا ادخل إلى غرفتي واستلقِ على السرير."

_ جيّد، أجابني وتابع :آمل ان لا *تستغيبونني وتفلّتو لساناتكن*.

ضحكنا جميعاً وقالت له يسرى :" اغلق باب الغرفة ، لأنه من الممكن ألاَّ نضبط ألسنتنا." وتابعت قولها بضحكة مدوّية.

ضحكنا جميعاً ثم ساد الصمت بعد أن غادرنا موسى إلى غرفة النوم. لكنه صمتٌ لم يدم إلا لحظات عدنا بعده إلى جو من الغزل، افتتحه وليد بكيل الإطراء إلى هنادي الجميلة والأنيقة

كالفراشة. اقتنصت هذه الفرصة وتركتهم كي اتفقَّد موسى . دخلت غرفة نومي ووجدته مستلقياً من دون غطاء فسألته :

_ ألا تشعر بالبرد ؟ هل أغطّيك؟

_ لا شكراً الغرفة دافئة. أجابني وصمت وهو ينظر إليَّ.

كنت أرغب بالجلوس قربه على حافة السرير وأمسِّد على وجهه، لكني أحجمت وهو لم يقل أية كلمة . يا لها من مكابرة تحضر بيننا كلما التقينا . كانت دائماً ثالثنا. لم أتردّد. فتحت الدرج قرب السرير وأخرجت منه شيئاً وقلت :"جئت لأخذ غرضٍ معين، عذراً على الإزعاج." لم يجبني لكنه ابتسم وتفاهمنا بصمت.

خرجت من الغرفة وأغلقت الباب وعدت إلى الصالون، وتابعنا أحاديثنا الجدية والمرحة في الوقت نفسه. وما هي إلّا دقائق حتى سمعنا باب غرفتي يُفتح، ودخل علينا موسى وهو يقول:" ما بتخلو حدا ينام." وأجابته يسرى سريعاً:" *شو نحنا جايين لنام عند إلهام.؟"*

ضحكنا جميعاً وتوجه موسى إلى الكنبة التي كان يجلس عليها والتي تركناها فارغة في فترة غيابه القصيرة. جلس وقالت يسرى :" سآخذ لكل واحد منكم صورة مع موسى." وأجابها موسى :" بتصوّر معكن أنتو الثلاثة ، وليد مش ضروري يتصوّر معي." ضحكنا وأجابه وليد:" معروف انت ما بتحب إلا الجنس اللطيف."

_ *شو بدك ايانـي حب الخناشير أمثالك*. أجابه موسى.

وتابعنا المزاح وأول من جلس بالقرب من موسى، كانت هنادي التي أشار إليها بأن تقترب. ويسرى تجهّز أدواتها السحرية لكي تلتقط أفضل وأروع الصور.

انتهى دور هنادي، وقال وليد :" يلا إلهام، دورك."

توجَّهت إلى حيث كان يجلس موسى واتكأتُ على حافة الكنبة وانقلبت الطاولة الصغيرة ووقع عنها تمثال صغير وانكسر. وعلق موسى بالقول:" *شايفين تجّبرها* ؟ *بتكسر الدني حتى ما تقرب."* وأجابه وليد على الفور:"*قرب إنت شو ناطر*؟"

دنى موسى مني وهو يقول :" أمرنا لله، *لي ما بيجي معك تعا معو*." غمرني بذراعه ووضعت ذراعي على كتفيه، وسمعنا يسرى تقول:" لا تتحركا" ، والتقطت الصورة. ثم جمعتنا كلنا على كنبة واحدة، وقبل أن تجلس معنا، نادت الخادمة ، وطلبت منها أن تأخذ لنا صورة. وكلها صور نشرتها في اليوم التالي على الفيسبوك بعد أن أرسلتها لكل واحد منا.

حين عدنا كلٌّ إلى مكانه ساد الصمت للحظة قبل أن يقول موسى:" انتظرت في الغرفة ولم تفكر واحدة منكن أن تأتي لمسايرتي وتدليلي." فسارعتُ إلى الإجابة :" لقد دخلت عليك وكنتَ متل الطبل لم تنظر حتى إليّ، فتحجَّجتُ بأخذ غرض من الغرفة وانصرفت." هزَّ موسى برأسه ، تلمّظ ولم يجب، لكنني

تابعت :" ربما كنت تنتظر من الأمّورة هنّود أن تزورك وتدلّلك." وسارع موسى إلى القول :" أنت مكابرة أعرفك جيداً. أما هنادي فلطيفة و... وقبل أن يتابع قلتُ:" وتعجبك ، لكنك من عمر أبيها استحي على حالك." ضحك وضحكنا جميعاً ورفع موسى كأسه وقال:" كاس هنادي ونكاية بإلهام." وهنا تدخل وليد وقال:" هل تدرون ماذا قال موسى يوم أتت إلهام لتدرس في قسم الفلسفة؟"

_ نقد،ر، قالت يسرى، لكنْ أسمعنا. وسأل وليد موسى:" هل أقول؟"

_ *قوول شو هيي مش عارفة حالا* ؟ أجاب موسى.

_ سأقول إذاًوتابع:

_ قال يومها موسى : هبطت علينا إلهام كقالب العسل الذي "فيّع" كل الدبابير.

هزَّ موسى برأسه ولم يجب. لكنَّ هنادي علّقت :" لم يصف إلا الواقع."

ورد عليها موسى :" وكلمتك أنت يا هنّود يوم قدَّمتي إلهام في المجلس الثقافي لم تكن ألاّ ترجمة موسعة لما قلته أنا باقتضاب.

هنا تدخَّلتُ في الموضوع كي أنهيه وننتقل إلى مواضيع أخرى وهذا ما تمّ .

كانت تلك الجلسة من أجمل الجلسات وستظل في الذاكرة، لأنها لم ولن تتكرّر.

غادروا ورافقتهم بتلويح الأيادي من على شرفة بيتي . غادروا لكنهم حضورهم استمرَّ معي طيلة السهرة ... حتى غفوت . لم أنم تلك اللية جيداً ، كان طيف موسى وقلقي على صحته يؤرّقانني. وفي الصباح استفقت على صوت يسرى عبر الهاتف، يتمنى لي الخير ويثني على تلك الجلسة الشيقة التي امضيناها معاً البارحة، وكانت قد سبقت ذلك بما كتبته على صفحتها في الفيس بوك حيث قالت تعليقاً على إحدى الصور التي نشرتها:" ما أحلاكِ إلهام وما أغلاكِ في جنتك! بالأمس غمرتنا غبطة كريمة وعميقة..."!. تصابحنا بالخير وأمضينا بعض الوقت في التعليق على ما دار بيننا البارحة وشكرت يسرى على كل الجهد الذي بذلته لالتقاط الصور، وأجابتني بكل هدوء:" كنتُ اتابع تغيُّرات وجهك وتقلُّبات مشاعرك أكثر من أي شيء آخر. كنتِ في قمة الأنفعال ووجهك كالعادة مرآة صافية." وأجبتها :" أنت حادة الملاحظة، صحيح كنت مسرورة جدا بوجودكم لكن قلبي كان حزينا." وأجابتني :" ألله يشفيه ويعافيه لأنه فعلا مكابر وجلود ولا يسمح للمرض أن يغيِّر شيئاً في سلوكه وطرافته وظرفه. حقا إنه كبير."

بعد تلك الجلسة لم أكلِّم موسى وانتظرت منه أن يكلمني هو حتى لا اتركه يلاحظ انشغال بالي على صحته. انتظرت حتى ضاق

صدري بعد حوالي الشهر فبادرت ، واتاني جوابُه كالعادة:" انا بخير، خضعت لعمليَّة في الرأس واستأصلوا ورماً، لكنّه لم يكن في منطقة تعطِّل أي نشاط لا عقلي ولا جسدي. قال ذلك وهو يضحك.

_ الحمد لله على سلامتك، أجبته وأقفلت الخط، وفي قلبي حزن كبير، فقد بدأ المرض يتفشى. إنها علامة سيئة.

أقفلت الخط وشعرت بحاجة أن أكلم يسرى. طلبتها وتحادثنا بالموضوع وتشاركنا الأسف لما يصيب الغالي موسى، قبل أن أقفل معها وأعود إلى ذاتي وأغرق في كل اللحظات الشيِّقة والمرحة والراقية التي مرت بها علاقتي مع موسى.

بعد مرحلة قصيرة ظهرت مجدّداً صورة قديمة على الفبيسبوك وهي صورة حفل تكريم للشاعر محمد العبدالله في إحدى قاعات بيروت الثقافية، والخبر مرفق ببعض الصور. تأمّلت من جديد صورة محمد وهو يعتمر قبّعة صغيرة: ملامحه لم تتغير كثيراً على الرغم من هزاله وشحوب وجهه لكني افتقدت تلك الحدّة النسرية في نظرته. بدا لي منكسراً ومهدّل الكتفين هو الذي كانت قامته الممتلئة والمنتصبة تشكل رافداً مهمّاً لطلّته الجميلة. حزنت من جديد لرؤيته بهذه الحالة: الانكسار لا يليق به. أمَّا ما استرعى انتباهي بشكل خاص في تلك الصور هو صورة لموسى جالساً على كرسي ومنحني الكتفين وهو أيضا يعتمر قبعة صغيرة لكنه يبتسم وكأنه يقول مكابرة :"أنا بألف خير." شعرت حينها بحزن

شديد، وبأني أود أن أضم موسى وأقبله قبل أن يرحل هو الآخر. توقفت كثيراً عند هذه الصورة واستعدت بحزن كبير ما أعرفه من شريط حياتهما . غرقت في ذاتي، ولم ألاحظ انطفاء شاشة الهاتف. وحين انتبهت حاولتُ أن أعيد الصورة لكنّها اختفت كما العادة مع الفيسبوك الذي وعلى الرغم من متابعتي له يوميّا لم أفهم ما هي آليته . حاولت عبثاً لأعيد الصورة وأكتب تعليقا جديداً يليق بالصديق الغالي محمد. خذلتني التكنولوجيا ولم أتمكن من ذلك . واكتفيت بما كتبته يوم رحيله :" أودعك بغصّة ودمعة." فبرحيله انطفأت منارة أخرى من منارات بيرت، وزادت العتمة فيها درجة، وقلت في نفسي :"يا إلاهي بات الظلام ينتشر في فضاء العاصمة." وعبرت في مخيّلتي كل المنارات التي انطفأت.

مر شهر تقريباً وانا أكابر ولا أتصل بموسى إلى يوم اتصلت بي الدكتورة نائلة، وهي وقبل أن تصبح استاذة في الجامعة، كانت مميَّزة .اتصلتْ لتدعوني إلى الاحتفال بزميلنا ناصيف القزي، لأنه سيحال إلى التقاعد. قبلت الدعوة لأن ناصيف من الأصدقاء المحبَّبين إلى قلبي، وقلت لها:

_ طبعا موسى من الدعوِين.

_ انه في الطليعة وسيلبي الدعوة على الرغم من كل شيء . أجابتني .وتابعت: هل تنسّقين معه ،لأن الدعوة إلى فندق البستان في بيت مري.

طمأنتها أن موسى سيكون برفقتي، وسنصعد سويّاً إلى المكان المقصود.

استودعتها واتصلت بموسى، واتفقنا أن نذهب معاً، وأننا سنلتقي في ضبيّة قبالة متجر ال ABC . وفي اليوم المحدّد، طلبت سيّارة تاكسي لأنني لا أعرف كيفية الوصول إلى ذلك الفندق، وتوجهت من بيتي نحو ضبيّة ورأيته من بعيد واقفاً إلى جانب الطريق العام، وعلى رأسه القبعة التي استرعت انتباهي في صورة تكريم محمد العبدالله. وصلنا وتوقف التاكسي، وصعد موسى إلى جانبي في السيارة على المقعد الخلفي بعد أن قال:"*بون جور*" وصمت.

بعد وقت قصير حاولت أن أكسر الصمت بيننا . لم يجبني بل امسك بيدي، وقال جملة واحدة وظل ممسكا بيدي ويشدُّ عليها من دون كلام إلى أن وصلنا إلى المكان المقصود. حينها انفرجت أساريره وانخرط كلّياً في الجو وهومحاط بالجميع. فرحت به، وكدت أنسى أنه مريض.

أكلنا وشربنا الأنخاب، وبخاصة نخب العزيز ناصيف، وتمنّينا له تقاعداً مريحاً ومنتجاً، وانتهت الجلسة وعاد التاكسي كما كنت قد طلبت منه، وحان وقت المغادرة . نظرت باتجاه موسى، فوجدته محاطاً بالزملاء، وبدا لي سعيداً بينهم . فما كان من ناصيف الذي لاحظ ما لاحظته وقال لي:" ان أردتِ المغادرة فافعلي، وأنا أتكفل بمرافقة موسى إلى بيته." شكرته وعدت إلى البيت، وأنا شاردة أستعيد كل لحظات تلك الجلسة الجميلة.

في البيت، خلعتُ هدومي الربيعية، لأننا كنا في شهر أيار على ما أّذكر، وارتديت عباءة وتمدّدت على الكنبة في الصالون وأنا أفكر بصمت موسى طول الطريق إلى المطعم، وتساءلت إن كان مزعوجاً أو... بعد قليل تلقّيت اتصالا من ناصيف يبلغني فيه أنه أوصل موسى، وسألته :" كيف كان في طريق العودة؟" وأتاني جوابه إن موسى كان بأحسن حال. لكنني تابعت الأسئلة، وقلت:" هل تكلّم معك في طريق العودة؟" وفاجأني بأن قال:" لم يصمت طول الطريق."

أقفلت الخط معه وأخذت أفكَّرهل أتصل بموسى وأسأله؟ لا لن أفعل فهو حر بتصرفاته، وليس من حقي أن أقتحم موقفه. عدلت عن الفكرة، ولم يخطر ببالي إلا الغالية يسرى التي يكون تحليلها ، في أغلب الأحيان صائباً. لم أتردّد وطلبتها، وبعد أن تبادلنا بعض الأحاديث "*ونشرنا عرض*" بعض الناس، واستمتعت بكرجة ضحكاتها، أخبرتها عن تصرف موسى معي. صمتت للحظة قبل أن تقول:" أظنُّ أنّه كان يودِّعك، هذا هو تحليلي للموضوع وتردّدت في أن أقوله لك، لكنَّ ثقتي بعقلانيَّتك شجعتني على البوح بما أفكر. تعرفينه أكثر مني، عبّر عن كل مشاعره بالتمسك بيدك كل الوقت ليقول لك ما لم يقله خلال علاقتكما إلّا مرة واحدة كما ذكرتِ ذلك في إحدى رواياتك. انتما جبلان، قامتان لا تنحنيان، والصمت أفصح تعبير بينكما. ألا ترين الأمر كما أراه؟ "

بعد صمت قصير، أجبتها:" لا أريد أن أرى الأمر كما ترينه، مع أنني أشعر به."

_ أعرفك لمّاحة وأتفهَّم رفضك . أللّه يشفيه ويكذِّب كل تحليلاتنا. أجابتني. وقبل أن نقفل الخط وأعود إلى نفسي منكسرة ومندهشة من فطنة يسرى التي، أدركتُ، أنها أفضل وأعمق من تفهم علاقتي بموسى، سألتها :

_ هل أتصل به وأستوضح الأمر منه؟

وأتاني جوابها السريع:

_ لا أنصحُك ابدا بذلك بل أنصحك بان تحترمي صمته ، لأنّه كان الطريقة الأجدى بنظره لتبليغك الرسالة.

أقفلنا الخط وأنا أتساءل هل يسرى على حق، في تحليلها ؟ أميل إلى أنها على حق لأن حدْسها غالبا ما يكون صائباً.

أحترمت صمت موسى، وأخذت بنصيحة يسرى لأيام عديدة ، ربما لشهر كامل، حتى ضاق صدري بالأسئلة ووجدت نفسي أطلبه من هاتف بيته، وسمعت صوت العزيزة صفية، سألتها عن موسى وأخبرتني أنه يتألّم ويعالجه الطبيب بالمسكنات، وتابعت:" سأعطيه السماعة كلّميه أنت." ووصلني صوته الذي ما عاد الصوت الذي أعرفه على الرغم من كل المكابرة التي تسلح بها موسى ليكون كالمعتاد. وحين سألته وبكل سخافة :" كيف حالك؟"

أجابني :" جيّد لكنني أتوجع وبخاصة على مستوى الخاصرتين. و...

وقبل أن يتابع، قلت له كي أشجعه وأنا من كانت بحاجة إلى تشجيع، لأني أدركت أن المرض قد وصل إلى العظم، وأن الألم سيزداد :" هناك مسكِّنات عديدة للألم..." لم أتمكن من المتابعة ، لكنه قال :" وصف لي الطبيب مسكِّنات لكنها لا تنفع إلا لوقت قصير."

وأجبته بشكل أبله :" نتفة روماتيزم وبيمرق، انشالله تخلص من هالوجع بسرعة."

ضحك وقال:" انشالله خير."

أقفلت الخط ومن دون أن أفكر، توجهت إلى البراد، اخرجت منه زجاجة ال"فودكا" وبدأت أشرب حتى شعرت بالدوار والنعاس، فأويت إلى سريري وغفوت،على غير عادة، إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي.

حضّرت لي الخادمة القهوة، وجلست في مقعدي العادي على الكنبة في الصالون، حيث كان اللقاء الرائع بالأحبة منذ فترة ليست طويلة. بدأت باحتساء القهوة وذهني شارد. كنت عند موسى متألّمة لألمه وفكّرت بأن أزوره . لكن سرعان ما ألغيت الفكرة من ذهني وقلت لنفسي:" لا لن أزوره ، لا قوة لي على تحمل انكساره وأعتقد أنه هو أيضاً سيكابر إن زرته وسيحاول أن

يتحمل الألم بصمت وسيتعب حتماً. هل أتصل به؟ أيضا لا. لا رغبة عندي في سماعه يشكو من الوجع ولا أريد ذلك. " وأدركت في تلك اللحظة أنني ربما لن أراه أبداً . حزنت جداً وطفرت دمعة من عيني، مسحتها بسرعة، وقلت بصوت عالٍ:" لا سينجو وسأراه." لكن....

تشجعت لفكرة أنه من ال"ممكن" أن يشفى!!! وهرعت إلى الهاتف لأتصل بالغالية فطّوم التي كانت الشاهد الحيّ على كل ما مررنا به أنا وموسى من علاقات جميلة، والتي كانت غالبيتها بالتلميح وليس بالتصريح. كانت تقوم بدور المترجم لتلك التلميحات وكنت أسرُّ جدا بترجماتها النافذة التي تجمِّل حتى القبيح.

حين سمعتْ فطّوم صوتي، سألت:

_ إلهام ما بكِ؟ صوتك لا يعجبني.

_ فطّوم ، أجبتها ، حالة موسى ليست جيدة.

_ يا أله ما هذه الخبرية ؟ ما الجديد؟

أخبرتها عن حالة موسى الجديدة وعن تطور المرض معه، وقلت لها إنني حزينة جداً، وإنني لا أحب النهايات. كانت تصغي إلى كلماتي، وتحاوأن تواسيني، وشعرت بها كأنّها تواسي نفسها، وسمعتها تقول:

_ يا إلهام: أين أصبحنا ؟ وها نحن نتهاوى واحداً تلو الآخر! يا له من خريف مرعب يعرِّي شجرة عمرنا ورقة ورقة.

_ إنه أيلول العمر، يا فطوم ! وأجابتني :

_ لكنْ ما يعزّينا أننا عشنا حياتنا كما نريد. كنا الزهر في بيروت التي انعشناها بحيويتنا وتحررنا . إلهام، لقد انتهت بيروت مع غياب من غاب حتى الآن ... يا له من زمن جميل عشناه في العاصمة نحن الذين وفدنا إليها من كل أطراف البلد.

_ هل تذكرين ما قاله موسى حين قدَّمني في ندوة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي؟

_ كنت خارج البلد يومها . ماذا قال ؟ أسألك وأنا كلِّي ثقة أنه أبدع القول كعادته.

_ قال:".... وأتت إلهام إلى بيروت من باريس ورأس بعلبك بقطار واحد..."

_ يا له من قول رائع ! لكنّي لم أُفاجأ ، هذا هو موسى وهذه هي أنت!

_ فطّوم، أنا حزينة جدًا وأتخبّط بين رغبتين : أود أن أكون إلى جانب موسى في وضعه الحالي، لكنّني لا قدرة لي على رؤيته ضعيفا ومنكسراً!

_ انصحك بألّا تزوريه. قالت ذل،ك وساد الصمت بيننا للحظات قبل أن أسمعها تتنهّد وتقول:" الله يشفيه."

أقفلنا الخط ، وعدت إلى ذاتي وتمني فاطمة الأخير يطنُّ في أذنيَّ.

لكنْ من أين يأتي الشفاء وقد تغلغل ذلك المرض اللعين في كل جسده؟ وقرّرت أن لا أزوره، ولا أكلّمه بواسطة الهاتف وسأكتفي بالاتصال بزوجته ،صديقتي صفية لأتابع حالته من خلالها. وهكذا كان . وفي كل مرّة، كانت تطلب مني أن أكلّمه وأفعل على الرغم من ألمي. وفي آخر أتصال، قال لي :" الوجع لا يطاق." وقالت صفية إنهم سينقلونه إلى المستشفى. اقفلت الخط وأدركت أنها النهاية ، وبأنني لن أسمع صوته بعد الآن. كان ذلك في نهاية شهر حزيران من سنة 2017

بعد أقل من أسبوع، وكان ذلك يوم الاثنين في الثالث من تموز، استفقت بعد ليلة مزعجة وأرق هدّ كياني. نهضت من فراشي واتصلت بالسيدة التي تأتيني كل يوم اثنين صباحاً لتهتم بتقليم أظافري، وطلبت منها أن لا تأتي لأنني، أريد أن أنام بعد ليلة الأرق التي مررت بها. أقفلت الخط ، وأتتني القهوة الصباحية، وباشرت بارتشافها حين رن جرس هاتفي الخليوي، وانا معتادة على رنته في الصباح الباكر لأنَّ ابن شقيقتي غالباً ما يتصل بي في مثل هذا الوقت ليطمئنَّ علي، لكنْ في ذلك اليوم حين رن جرس الهاتف، لم أستبشر بالخير. وحين رفعتُ الهاتف عن

الطاولة لأعرف من هو المتصل قبل أن افتحه. قرأت الإسم وكان "أمين وهبه" وهو اسم ابن موسى. وهكذا وصلني الخبر قبل ان أفتح الهاتف لأسأل مباشرة أمين:" متى حصل ذلك؟" وردَّ عليَّ قائلاً :" مساء البارحة والدفن غداُ في الشيخ طابا وتقبل التعازي والجنازة قبل الدفن في..."وأجبته بالعبارة العادية :" الله يرحمه." ثم اقفلت الخط، وجلست مهزومة لا أقوى على شئ. بت هكذا كالبلهاء لأكثر من ساعة، قبل أن أكتب على صفحتي على الفيسبوك:"رحل الغالي موسى والدمع ما عاد يفي بالغرض، أما الغصّة فستدوم وتدوم إلى آخر المشوار. موسى الغالي ستبقى صديقي؟"

انتهيت من الكتابة، ولم يخطر ببالي إلا الاتصال ببعض الأصدقاء وبخاصة يسرى وفاطمة وهنادي، وأخيراً بربى شاعرتنا الكبيرة التي هي صديقة عزيزة لموسى، وأعرف مدى حبها له، والتي تسكن ليس بعيداُ عن بيتي. واتفقت معها أن نذهب معاً في الغد إلى المكان المحدّد. بعدها، أقفلت كل نوافذ ذاتي لأتأمل بهذه السخافة التي يسمونها الحياة، ومرّ في مخيلتي شريط عما أعرفه من حياة موسى، الذي ظلّ طيفه مخيماً قبالتي حتى هدّني التعب والأرق بالرغم من لجوئى إلى جرعة من دواء يساعد على النوم.

صبيحة اليوم التالي، استفقت باكراً كالعادة وباشرت بتحضير نفسي لوداع موسى . لبست الأسود وانتظرت مجيء ربى. لم

تتأخر. كانت حزينة مثلي . وأول ما قلته لها حين رأيتها بالأسود:" هل يعقل أن نرتدي الأسود لفراق أغلى الأصدقاء موسى! وأجابتني بكل هدوء:" سبق لي ولبسته لفراق بطرس الذي كان يعزّك بشكل خاص." وبطرس حبيب، الغالي والذي فارقنا باكراً هو زوج الصديقة ربى. ضممتها إلى صدري لثوانٍ، قالت بعدها :" العوض بسلامتك إلهام، أنا لا أعرف زوجته وخيراً فعلت بمرافقتك لي ." وأجبتها إنني أعرف صفيّة ، زوجة موسى جيداً وإنني أحبها جداً لأنها اهتمّت به حتى آخر لحظات حياته. عاملته بحب ونبل كبيرين، ألله يكون معها ويعينها على غيابه.

قبل أن نترك البيت، استوضحت من إحدى الجارات عن مكان صاحب أكاليل الزهور المخصصة لمثل هذه الظروف. مررنا به واخترت إكليلاً من الورد الأبيض، وطلبت من صاحب المحل أن يرسله إلى...وحين سألني :" وماذا أكتب على الشريطة . لم أتردّد باختيار الكلمات وقلت له:" اكتب: من إلهام: وداعاً موسى وإلى اللقاء."

خرجنا من ذلك المحل وتوجهنا إلى بيروت. حين وصلنا ركنت سيارتي في المكان قريب من القاعة المخصصة لاستقبال المعزّين. أول من كنت أبحث عنهم كانوا عائلة موسى. جلت بنظري في كل الأرجاء ولم أجد أحداً، فتوجهت مع ربى ألى حيث المقاعد منتشرة وجلسنا. بعد أن أخذت مكاني جلت بنظري

في القاعة، ورأيت الوجوه التي أعرفها: رفاق موسى وتلامذته وزملاءه ورفاق الجلسات في المقاهي والحانات والسهرات التي كانت عامرة في بيتي وبيوت الأصدقاء، ورفاق جلسات البوكر التي كانت تطول أحياناً حتى الصباح و...للحظة شعرت أنه سيدخل علينا بابتسامته الساخرة، لكن!... وتوافد نحوي الأصدقاء ليعزوني وما عدت أتمالك نفسي وطفرت دموعي من عينيّ وقلت في نفسي:" هل ألتقي بكل هذا الجمع وأنت ما عدت موجوداً بيننا !"

مسحت دموعي ورأيت صفية تدخل من الباب برفقة ليلى وأمين. لم ينظروا إلى أحد وتوجهوا إلى صدر القاعة، حيث كان لهم مقاعد خاصة. انتظرت قليلاً وتوجَّهت مع ربى نحوهم وقبّلت صفية معزّية فشدت عليَّ ووشوشتني بصوتها المبحوح:" كان يعزّك كثيراً" لم أجبها، وضممتها إلى صدري ثم عزَّيت ليلى وأمين. وما استرعى انتباهي في تلك اللحظة :الشبه الكبير بين أمين وأبيه. ورأيتني أقول لصفيَّة:" موسى لن يغادرك وها هو قد عاد شاباً."ضمَّت أمين إلى صدرها وقالت :" إنه صورة عن أبيه."

عدت إلى مكاني ولفت نظري شاب لم أعرف من هو بالتحديد، لكني كنت متأكدة أنه من أقارب موسى. اقترب مني وقال العبارة المألوفة :" عوضنا بسلامتك." أجبته بالمثل لكنه ظل واقفاً أمامي وقال :" موسى رحل بإرادته."

_ ماذا تعني؟ سألته. وأجاب من دون تردد:

_ أخبرني ابن أخيه إن موسى حين أدخلوه المستشفى واشتد عليه الألم، نادى ابن أخيه الطبيب وقال له:" لقد حان وقت السفر. هيَّا اعطني ال"حبّة". وهكذا هو. حدّد ساعة رحيله الذي وصفه بالسفر.

قال ذلك، وانصرف، وبقيت شاردة أستعيد ما سمعته، وتساءلت لماذا هذا الشاب تقصّد أن يخبرني ذلك؟ هل أسأل ،لاحقاً، صفية؟ لكنّني لم أفعل، واحتفظت بذلك الخبر لنفسي ولم أتقاسمه إلى مع يسرى وهنادي وفي جلسة حميمة بيننا كان فيها موسى الغائب رابعنا. وسررت من جواب يسرى التي قالت ما قلته، أنا في سرّي، حين أخبرني ذلك الشاب عن رحيل موسى، قالت:" لا أستغرب ذلك ." وصمتت.

حان وقت الجنّاز وانتقلنا إلى الكنيسة ،وجلست مع ربى في المقاعد الخلفية وتابعنا الكلمة التي ألقاها المطران . استمعت إليه وأنا شاردة متسائلة كيف يغدو المرء ملكاً للجميع بعد موته، وكيف ينتقل بلحظة من وجود إلى مجرد جسد، يخضع لكل المراسم التقليدية ! وهل موسى موافق على ما يقوم به الأهل من صلاة وجنازة و...

وهكذا انتهت المراسم، وحُمل النعش باتجاه باب المدخل استعداداً لنقل الجثمان إلى الشيخ طابا حيث يوارى الثرى. في هذه الأثناء،

طلبت من ربى أن نعود أدراجنا بعد أن عرض عليَّ الكثيرون من الأصدقاء مرافقتهم إلى المثوى الأخير لموسى . شكرتهم، وعدت إلى البيت حيث سألت نفسي لماذا لم أرافق جثمان موسى إلى ضيعته؟ وأجبت نفسي : ربما لأنني أرفض فكرة رحيله وفكرة أنه سيقيم هناك بعيدًا و... باختصار لا أحب النهايات. لكنني مقتنعة أن مقبرة الأحبَّة هي قلوبنا . ومن لحظة ما علمت بغياب موسى، أضيف في قلبي حيزٌ جديد، لا يزول إلاَّ مع زوالي.

استلقيت على الكنبة في الصالون من دون أن أخلع عني الملابس السوداء، وحاولت الاسترخاء علَّني أغفو وأبتعد عن ذاتي أولاً قبل أن أبتعد عن سواي. عبثاً حاولت، فنهضت وأخذت أتمشى في البيت من دون هدف محدّد إلى أن قرّرت أن أهرب في النوم. طلبت من مساعدتي في البيت أن تحضِّر لي كأسا من البابونج . حين أتتني به شربته مع حبة من المنوِّم القوي واستلقيت على الكنبة كما أنا من دون أن أغير ثيابي. كنت مقررة ألا أخلعها في ذلك اليوم الأسود. وطلبت من مساعدتي أن لا توقظني إن غفوت، وأن تتركني حيث أنا.

لم أدري كم من الساعات انقضت! استيقظتُ ونظرت من الشرفة إلى الخارج من دون أن ألتفت إلى الساعة في معصمي، ومن دون أن أتحرك من مكاني. كان الجو مظلماً والتبس عليَّ الوقت: هل هو الليل أم الفجر. كان الفجر بحسب الساعة التي استعنت بها مضطرة. نهضت من مكاني، ودخلت المطبخ لأحضِّر القهوة .

احتسيتها بسرعة ورفعت هاتفي عن الطاولة، فتحت الفيسبوك وكتبت:" سلام عليكِ شيخ طابا وسلام على من احتتضنه ترابك البارحة. لكنْ للأمانة أقول لك إن موسى لم يخرج يوماً من رحمك، بل منها انطلق في كل مساراته الفلسفية و الاجتماعية والعلائقية والودّية والعشقية... كنتِ دائماً في حقيبة أسفاره لأن الأصالة كانت إحدى ميزاته ووجهه لا يتقبّل الأقنعة." والآن أضيف :" أنت أتيت أستاذاً إلى الجامعة اللبنانية من الشيخ طابا ومن باريس في قطار واحد. تماماً كما قلت في إحدى المناسبات بأن إلهام أتت إلى بيروت من رأس بعلبك وباريس بقطار واحد." سررت جداً، يومها، بهذا القول، لأني رأيت فيه قمة البلاغة، وأسمح لنفسي باستعارته، لأنه أفضل ما يقال في أصالتك. ومرّة أخرى، قلت في مناسبة تكريمي من قبل هيئة معرض الكتاب ومن جمعية الناشرين، بأنني أكتب ووجهي عارٍ من دون أقنعة.... وختمت قائلاً:" شكراً إلهام لأنك موجودة." وهذا أيضا ما أقوله لك:" شكراً موسى لوجودك الذي كان وسيظل في حياتي."

بعد أيام قليلة، اتصلت بصفيّة لأطمئن على أحوالها، وأخبرتني أنها ستسافر لفترة شهر إلى كندا كي تكون مع شقيقتها وتبتعد عن البيت الذى رحل عنه حبيب قلبها موسى. شجَّعتها على ذلك وواسيتها بكلمات ما عدت أذكرها بعد أن سمعت منها مدى تأثير وصعوبة الفراق عليها. " كتير صعبة" كانت آخرعبارة قالتها قبل أن أجيبها بالمثل ونقفل الخط.

خلال الأسبوع الثاني خطر ببالي أن أزور بيروت . قرّرت ونفّذت. ركنت سيارتي في الموقف قرب الساروّلا، في شارع الحمرا، حيث كنت أركنها عادة في زياراتي لمطاع الصفدي قبل رحيله. خرجت من الموقف ، نظرت إلى المبنى، وقلت رحمك الله يا مطاع. كنت من وجوه بيروت الثقافية . مشيت، وكانت كل خطوة تذكرني بأحدٍ ممن غابوا حتى بدت لي العاصمة مدينة أشباح. وهنا طرحت في ذهني مقولتَي الزمان والمكان وبأنه صحيح أن المكان بأهله!..، وتابعت سيري شاردة كأنني في حلم ، لا بل في كابوس: أين كل الذين كانوا ؟...ولكي أخرج من الكابوس، حاولت دخول أحد المقاهي الجديدة التي نبتت على أنقاض الزمن الجميل. دخلت وجلت بنظري، علّه يتوقف عند أحدهم . وجوه ، قد تكون ممتازة وجميلة جداً لكنها ليست من زمني . هالني أن أجلس وحدي بين هذا الكم من الغرباء، فتركت المقهى وعدت إلى الطريق، وسرت باتجاه موقف السيارات، وهنا لا أدري لماذا فكّرت مجدّداً بمطاع وبخلافاته الصغيرة والمضحكة التي كانت بينه وبين موسى والتي انتهت إلى مصالحة بينهما قبل رحيلهما. وصلت إلى موقف السيّارات ، صعدت إلى سيارتي وقبل أن أقلع بها إلى الخارج، إلى الطريق العام تذكّرت حنا مينه وتساءلت ما الذي أحضره الآن في ذهني؟ وقلت لنفسي أنه ربما يكون عامل الجنسية الواحدة بينه وبين مطاع إذ الأثنان سوريان. تابعت سيري برفقة حنا الذي كان كلما

أتى إلى بيروت يتصل بي ونمضي الوقت معاً هو الذي كتب مقالاً في روايتي الأولى" إلى هبى" حيث أبدى ملاحظاته وتشجيعه لي معاً. وقد قال لي بعد ذلك إنه لم يكتب مرَة واحدة في حياته عن رواية غير روايتي، وبرّر ذلك بقوله:" إنها واعدة" وهو ثناء قد قرأته في رسالة كان مطاع قد أرسلها لي مرّة من باريس، حيث كان يقيم فترة الحرب في لبنان وقبل عودته إلى بيروت.

تابعت القيادة وأنا أفكر بمن تبقى من أحبَّة أعرفهم في بيروت وحاولت الاتصال بخيريّة لأزورها لكنها، وبعد أن رحّبت، كعادتها باتصالي، قالت إنها في بيت ابنتها. فكّرت بأن أزور فطُّوم، لكن بيتها بعيد وعجقة السير لا ترحم! ومن دون أن أدري رأيت نفسي أتوجه نحو "مقهى الروضة" على شاطئ البحر. كنت متأكدة أنني سأجد هناك من يعيدني إلى مزاجي الطبيعي والحقيقي، ومعه أستعيد وجه بيروت التي عرفتها وهي كانت لا تزال بأوج عزّها وزخمها الثقافي والفني والترفيهي و...

دخلت الطريق الضيقة المؤدية إلى المقهى ،وقبل أن أركن سيارتي رأيت عصام العبدالله بقامته الوارفة يهمُّ بالخروج من المقهى الذي هو قبالة الروضة. حين رآني أقترب من السيارة ورحب بي قائلاً."إلهام في حينا أهلا أهلاً." رحّبت به وأظهرت له أنني مسرورة جداً لرؤيته ودعوته إلى شرب القهوة في الروضة علّني برفقته أيضا أستعيد ما تبقى من بيروت التى

أعرف. لكنّه اعتذر قائلاً إن لديه موعداً مع الطبيب. تمنيت له الخير، ركنت سيارتي قرب مدخل الروضة وتوجهت مباشرة إلى ذلك الركن من المقهى الذي يحاذي البحر لأنني سوف ألقاها.

من بعيد، وقبل أن أصل، رأيتها جالسة في مكانها المعتاد وأمامها على الطاولة ركوة قهوة ومجموعة أوراق. دخلت المكان ولم تنتبه إلى أن وصلت حيث هي، وقلت :" صباح الخير." رفعت نظرها وانتصبت واقفة وهي تقول:"إلهام ما هذه المفاجأة!" فاقتربت منها وتعانقنا للحظات قبل أن تعود إلى مكانها وأجلس قبالتها.

بدأنا في دردشة عن الأحوال! وفجأة سألتني :"هل تكتبين؟"وأجبتها:

_ لا يا يسرى، ولا أدري لماذا أتهرّب من متابعة كتابة الرواية التي بدأتها بكل حماس. كلّما شعرت برغبة بالكتابة أخترع كل الحجج كي أبتعد وأهرب. وأجابتني بكل هدوء:

_ ستكملينها أنا متأكدة. خذي وقتك واكتبي حين ترغبين في ذلك.

_ تعرفين، يسرى، إنّني لا أكتب إلاَّ حين تكون الكتابة متعة ونابعة من عمق أعماقي...

وقبل أن أنهي كلامي، قاطعتني لتقول:

_ وهذه هي الكتابة الحقيقية في عالم الرواية، وبخاصة السيرة الروائية كما تكتبين. وأجبتها:

_ أنا أعرف لأي سبب يعود تهرّبي من الكتابة ؛ يعود ، ربما، إلى تصميمي أن تكون هذه الرواية آخر ما أكتبه في هذا المجال. لذلك أسمح لنفسي أن أماطل وكأنني لا أريد أن أنهيها.

_ تحليلك صحيح، لكني واثقة أن اللحظة التي تستعيدين فيها الكتابة ستكون انطلاقة جيدة، ولن تتوقف.

هنا، أردت أن أنقل الكلام إلى مكان آخر، وقلت لها إنني التقيت في الخارج بعصام العبدالله، وإنني لاحظت تغيراً في لون بشرته إذ إنها باتت تميل إلى اللون الأزرق الداكن. وأخبرتني أنه مريض ويعالج. حزنت للخبر، وقلت في نفسي :"قامة جديدة ستهوي لتترك فراغاً كبيراً. " وقلت لها :" الفراغ يتسع، ويبدو أن "ايلول" يتابع حصاده بنشاط." وأجابتني وهذا حافز لك لتتابعي كتابة أيلول "كِ" بنشاط.

وقبل أن أجيبها، رأينا إلى علوية وخيرات تتقدمان نحونا . وصلتا وجلسنا معاً، ومن بعيد رأيت الشاعر حسن العبدالله الذي أسميته "بلبل الخيام" بعد أن قرأت له قصيدة عن بلدة الخيام على الفيسبوك، رأيته جالساً إلى طاولة مع بعض الأصدقاء. وفي الناحية الأخرى رأيت الممثل الكبير رفيق علي أحمد جالساً وحده وبحالة تأمل. وتذكرت مسرحية "جبران والقاعدة" التي أخرجها

المرحوم يعقوب الشدراوي، والتي شاركتُ فيها مع مهدي عامل بدوريْن صغيريْن بناءً على طلب المخرج . في تلك المسرحية كان الدور الأكبر لرفيق علي أحمد، حيث أبدع واستمر في الإبداع في كل أعماله اللاحقة .

حين رأيت تلك الوجوه، استعدت شيئاً من بيروت التي أعرف. في تلك المدينة التي أعرف. كنا نلتقي كثر في مقهى الكافيه دو باري أو غيره، ونشكل حلقة تتسع كلما انضم أحد إليها حتى يصبح المقهى كله حلقة واحدة. أحياناً كنا جمهرة من الكتّاب والقرّاء الجميلين، وكنا نضيف إلى جمال العاصمة جمالاً مع كل ما يحمله كلٌ منا في شخصه من مزايا ضيعته . وهنا استطيع القول إن غالبية صديقاتي السيدات الوافدات إلى بيروت، وبخاصة الوافدات من جنوب لبنان ينطبق عليهن ما قاله موسى عني يوما : كل واحدة أتت إلى بيروت من ضيعتها ومن مكان تخصصها في الغرب بقطار واحد. غالبيتنا كنّا من الأرياف، لكننا نحن من أعطى العاصمة تلك النكهة الفوّاحة بالعطور... . فرحت بمن رأيتهم ذلك اليوم في الروضة، ونسيت قليلاً الغصة التي شعرت بها في شارع الحمرا. فرحت واكتأبت في آن واحد!

عدت بعد هذه الجولة في الذاكرة إلى الحاضر وتداولنا بأمور كثيرة حول طاولة يسرى، قبل أن أستأذن منهنَّ واعود إلى منزلي قبل "عجقة" السير التي لا ترحم ، في ساعات معينة، بين بيروت وجونيه. تركتهنَّ وتوجَّهت نحو مدخل الروضة وفاجأني ظهور

هيثم الأمين أمامي يدخل المقهى، هذا الوجه الضاحك دوماً يبث الفرح حوله. قبَّلته على وجنتيه وتبادلنا بعض كلمات سريعة وأكملت طريقي نحو سيارتي التي توجهت بها شمالاً ورأسي يضجُّ بالذكريات الجميلة التي لن تعود، والغصَّة التي أدمعت عيني؛ كانت هذه المرّة الأولى التي أزور فيها بيروت ولم ألتقي بموسى.

كنت طوال الطريق شاردة، ولم أنتبه لنفسي إلاَّ حين دخلت مرآب البناية التي أسكن إحدى شققها. صعدت إلى البيت، وقبل أن أفتح الباب رنَّ جرس هاتفي، نظرت إلى الشاشة ورأيت صورة موسى مع صفية في لقطة رائعة وهي الصورة التي تدل على أن صفية هي المتصلة. فتحت الهاتف، وأتاني صوتها الذي ما زال مبحوحاً من الصدمة، لتقول:" إلهام، نقيم جناز الأربعين لموسى يوم الأحد في كنيسة الضيعة، ولم أخبر إلاَّ القليل من الأصدقاء، وأودُّ أن تكوني معنا."

_ الله يرحمه،سأكون حتما معكم، أجبتها . فشكرتني، وقالت :

_ الأحد الساعة العاشرة، وإن وصلتِ قبل الموعد نحن بانتظارك في البيت.

أقفلتُ الخط وأخذت أفكر بكيفية الذهاب إلى الشيخ طابا! ومع أنني زرت فيها موسى لأكثر من مرّة نسيت تماما الطريق إليها. كنت أفكر بأن أطلب تاكسي لذلك الغرض حين رنَّ جرس الهاتف

مجدّداً وإذ بالدكتورة نائلة على الخط، نائلة التي كانت طالبة مميّزة قبل أن تصبح زميلة عزيزة. وبعد تبادلنا السلام والاطمئنان عليها وعلى عملها وغيره، سألتني:

_ هل نذهب معاً يوم الأحد؟ أنا لا أعرف كيفية الوصول وحدي.

_ من كل بدّ، أجبتها. لكن دعيني أفكر بالوسيلة أولاً، لأنني ما عدت أذكر الطريق جيّداً . وأجابتني:

_ آتي بسيارتي إلى بيتك ونذهب معاً . لكنْ كيف ونحن لا نعرف الطريق!

هنا لمعت في رأسي فكرة أن أستأجر سائقاً يقود سيارتي وينتظرنا هناك ثم يعيدنا، وقلت لنائلة :

_ دعيني أفكر وأتصل بك بعد قليل.

أُقفلت الخط معها، وسمعته يرنّ من جديد: وكان هذه المرّة خنجر العبدالله، وهو صديق لي ولموسى، الذي يطلب مني أن نذهب معاً إلى أربعين موسى. وقلت له ما قلته لنائلة بأن ينتظر قليلاً لأنه لا يملك سيارة ولا يقود.

أقفلت الخط ، وأخذت أفكر وبسرعة وجدت الحل فالحلّاق ألذي أزوره كل يوم سبت لتصفيف شعري هو من عكار، وقد سبق له

أن قدّم لي خدمات عديدة طلبتها منه لأساعده مادياً وأوفّر على نفسي ال" بهدلة" في بعض دوائر الدولة. لم أتردّد طلبته واستجاب مرحِّباً. أقفلت الخط معه، واتصلت بنائلة وخنجر، ورتبنا كل الأمور.

وصلنا يوم الأحد إلى ضيعة موسى حوالى الساعة العاشرة وتوجّهنا مباشرة إلى الكنيسة. كانت هناك صفية مع ليلى وأمين الذي بت أسميه موسى الصغير. تقدّمت منهم وقبلتهم جميعا وبخاصة صفية التي بكت على كتفي، وهي تقول بصوت خفيض: شكراً لقدومك لمشاركتنا الصلاة على روح موسى . ثم أجهشت بالبكاء وقالت:"كتير صعبه." ضممتها إلى صدري، وفي تلك اللحظة شعرت كأنها ابنتي.

انتهى الجنّاز، وطلبوا منا زيارة القبر لمن يرغب. لم أكن أرغب بذلك، ولم أزر القبر، لأن موسى راكن على عرش في ذاكرتي، ولن أزوره إلاَّ هناك وساعة أشاء. لذلك، انفصلت عن الجمع وتوجهت نحو السيارة، فلحقت بي صفية لتتطلب مني بإلحاح أن أشاركهم في البيت" لقمة الرحمة" عن نفس موسى. لم أستطع رفض طلبها الصادق، وتوجهنا جميعاً نحو بيت العائلة وتناولنا الغداء مع الأهل والأصدقاء. ولكن...ما حصل خلال تلك الجلسة ما كنت لأتوقعه.

كانت صفيّة تعرض أمامي صوراً لموسى وهو شاب، بعد أن عبّرت كم أن أمين يشبه أباه. بالفعل رأيت الشبه كبيراً جداً . وفجأة، جلس إلى طاولتنا شاب وسيم ، نظر إليّ وقال :" هل تذكرينني؟" حدّقت في وجهه، وقلت لنفسي :" أعرف هذا الوجه، لكن من هو؟" وحين أدرك أنّني لم أعرفه تماما سأل:

_ هل ما زلت تحتفظين بأوراقي وتسجيلاتي؟

حين قال ذلك وَضُحت الصورة أمامي، على الرغم من أنني لم أتذكَّر اسمه. تابع:

لماذا أقفلت عليّ كل الخطوط ولم تجيبي بعد أن تركت بيتك ناسياً كل أوراقي، وعلى أمل بلقاء آخر لاستكمال الحوار.

لم أجبه وتابع:

أنا كنت طالباً عند الدكتور موسى، وأعمل في مجلة الحسناء، وهو الذي طلب مني أن أجري حواراً معك لينشره في المجلّة تمهيداً لروايتك "أيلول". لكن ولسوء الحظ ... وأجبته أنني منذ ذلك الحوار لم أكتب كلمة واحدة ، وتابعت :" أتهرّب من الكتابة لا أدري لماذا!"

لكنه تابع، وسأل من جديد :"هل ما زلت تحتفظين بالأوراق والتسجيل؟" أجبته :

_ بعد مغادرتك في ذلك اليوم، وضعت كل أغراضك في دُرْج مكتبي ولم أعد إليها أبداً .

وسارع إلى القول :" أرغب في استعادتها هل تسمحين؟"

"طبعا أجبته، وهذه المرّة سأجيب على الهاتف. تستطيع أن تمر بي ساعة تشاء. "

تركنا ذلك الشاب الذي تبيّن لي أنه من أقارب موسى، فاستودعت صفيّة وليلى وأمين، وعدت برفقة نائلة وخنجرمن حيث أتينا . غادرتهم وأنا أقول لنفسي :" ربما هي المرة الأخيرة التي أزور بها هذه الضيعة وهذا المكان!"

_ 3 _

اتصلت بها بعد أكثر من أسبوع على لقائنا في أربعين موسى، وسألتها إن كانت جاهزة لاستقبالي لأستردَّ أوراقي وأجابتني :

_ انتظرني اسبوعاً واحداً وأنا أتصل بك.

لم أناقشها فلربما لها أسبابها . اقفلت الخط وأنا أتساءل : هل أنها تتهرَّب من تسليمي الأوراق ؟ وهل حدست بما سأقوم به؟ هل أخبرها موسى قبل رحيله أنّني بصدد كتابة ... ؟ لا أدري وما علي سوى الانتظار. وإن لم تتصل، سأحاول من جديد.

لكنها لم تخلف بوعدها، واتصلت بعد أسبوع، وحدّدت لي موعداً للقائها في بيتها.

وصلت بيتها في الوقت المحدّد، واستقبلتني بودٍّ كبير وطلبت مني أن نشرب القهوة قبل أن تسلّمني أوراقي. قبلت الدعوة بكل سرور وجلسنا في مكتبها ننتظر القهوة. فبادرتْ إلى الكلام وقالت:

_ سمحت لنفسي أن أقرأ أ،وراقك واستمع إلى تسجيلاتك للقائنا الأخير، وهو أمر شجَّعني على الكتابة، فكتبت، واليوم سأردُّ لك ما نسيته عندي مضافاً إليه ما كتبته أنا خلال الأسبوعين الماضيين . وسألتها:

_ أفهم أنكِ أجّلتِ لقاءنا أسبوعا كي تنجزي ما تودّين كتابته؟ هل تحدسين بما أخطّط؟

ابتسمت ولم تجب، لكنَّها أخرجت من دُرْج مكتبها مغلفين وقالت: :"خذهما إنهما لك. وانا احتفظ بنسخة لي." وتابعت:" هل قرأت شيئاً من رواياتي؟"

_ كان المرحوم موسى يهديني بعضاً من رواياتك، وقد قرأت كل ما عندي، وأنا معجب بشفافيتك وقدرتك على قول الأمور كما هي من دون مواربة ولا ورع، وهذا ما لا نجده عند غالبية الكتّاب وبخاصة كاتبات السيرة.

_ وما هي الكتب التي أهداك إيّاها موسى؟ سألتني.

_ خمسة وهي "أنا هي أنت" و"بالإذن من سفر التكوين" و"صوت الناي" الذي أعجبت به جداً وأُعجبت كيف أنك في سنة 1995 كانت لك هذه الرؤية السياسية؟ ثم قرأت "حين كنت رجلاً"، وأخيراً "تركتُ الهاتف يرن" الذي أعطانا درساً بمفهوم الصداقة.

صمتتْ وصمتُّ بدوري ولكن للحظات قبل أن تقول: ما يهمُّك من كتاباتي هو السيرة، ومن بين الكتب التي أهداك إيّاها موسى "حين كنت رجلاً" و"تركت الهاتف يرن" هما من صميم السيرة. أما الروايات الأخرى فهي مزيج من السيرة وغيرها من مشاهداتي ومن رؤيتي ورأيي حول هذا الوجود وبخاصة في رواية:" بالإذن من سفر التكوين" الذي هو برأيي تجسيد روائي لفكرة العوْد الأبدي،ممزوج بقسم من السيرة.

صمتت قليلاً ثم التفتتْ إلى مكتبتها، وقالت:

_ فلنتوجَّه إلى المكتبة حيث جمعتُ في زاوية منها كل كتبي، واخترْ ما تريد منها إنها هديَّتي لك.

لم أصدق ما سمعت، وقلتُ لها:

_ كنت محتاراً كيف سأطلب منك ذلك، ومن باب الاستعارة فقط، لأنني في طور تحضير أطروحة دكتوراه حول كتابة السيرة عند بعض الكاتبات اللبنانيات، وأنا تأكدت الآن أن موسى قد أخبرك بذلك.

ابتسمت، وقالت :

_ صحيح، لقد أخبرني موسى عن طالب عنده يقوم بهذا العمل ، لكنّني نسيت الموضوع ولم أتذكّره إلّا الآن. فبالتوفيق، قالت وهي تبتسم، هيَّا تفضل وأختر من مكتبتي ما ينقصك، وإن أردت المساعدة في إعداد أطروحتك فأنا جاهزة للمساعدة وبخاصة أنك من قبل الغالي والذي سيظل غالياً.

شكرت كرمها ونهضت من مكاني، وتوجهت نحو المكتبة بعد أن عيّنت لي مكان كتبها. قرأت العناوين أولًا ثم توجّهت إليها بسؤال:" هل أستطيع..؟

وأتى جوابها السريع:" خذ ما تشاء.

_ حتى ولو أخذت كل ما ينقصني من كتبك. سألتها.

ابتسمت وقالت:

_ الكتب هي للقراءة وليس لصمدها على رفوف المكتبات كما يفعل بعض الجهّال ومدّعو الثقافة. خذ ما تشاء.

شجعني كلامها وقلت:

_ سآخذ كل ما ينقصني من مجموعتك. هل تسمحين؟

ضحكت وقالت :" هذا ما عليك فعله إن كنت جادّاً في عملك الأكاديميّ.

شكرتُها وجمعت كل ما ينقصني من كتاباتها . فأتتني بمحفظة حيث وضعت كل ما جمعته عندها، واستأذنتها للمغادرة على أمل أن أنجز الأطروحة بأسرع وقت، وسألتها إن كنت سأزعجها لو احتجت إلى مساعدة منها.

رحبت بي، وقالت :"أنا جاهزة في كل لحظة". وغادرت بيتها مزوداً بكل ما أحتاج إليه، وبخاصة أنني لم أجد بعض كتبها في المكتبات. وشعرت وأنا أعود إلى سيارتي بأنني فعلاً محظوظ، وترحّمت على روح موسى الذي ادّى لي هذه الخدمة قبل رحيله.

عدت إلى بيتي مزوداً بأكثر مما كنت أتمنى، وتوجّهت مباشرة إلى غرفتي حيث مكتبي الصغير. جلست أمام الطاولة حيث وضعت عليها المحفظة، وبدأت بإخراج الكتب منها. شعرت بسعادة عارمة وبرغبة جامحة للبدء بالقراءة، وأول كتاب شدّني عنوانه كان " أيّهما هو؟". لكن وقبل أن أبدأ بقراءة الكتب، غلبتني رغبة أخرى وهي التلصّص على ما كتبته هي بعد زيارتي الأولى لها. تركت الكتب مكدّسة على الطاولة وسحبت مخطوطتها وبدأت القراءة.

قرأت بسرعة كي أحظى بمعلومة جديدة حول شخصية هذه الإنسى . قرأت وقرأت، وإذ بي لا أجد إلا موسى، موسى في المرحلة الأخيرة من عمره ومرافقتها الدقيقة لهذه المرحلة وأدركت أن ما كان يجمعهما هو أكثر من صداقة عادية، وقرّرت أن أكتشف هذا الأمر في لقائى معها، وأنا واثق أنها ستكون صريحة .

انهيت ما كتبتْ، وفتحتُ كتابها الذي شدَّ عنوانه انتباهي . غرقت في القراءة، ونسيت الوقت والطعام و... كنت مصمّماً ان أنهي قراءة هذه الرواية بأسرع وقت: وهكذا أمضيت النهار ومعظم الليل مع السيدة إلهام وهي تروي وتروي عن علاقاتها قبل أن تدفنها كلّها في جبَّانة الضيعة.

لم أرغب في التعليق قبل أن انتهي من قراءة كل الروايات والسِيَر، مع محاولة وضع أسئلتي على ورقة كلّما انتهيت من

قراءة أحد الكتب. اعتمدت هذه المنهجية، وتابعت عملي لأكثر من عشرة أيام. حين انتهيت لم يعلق في ذهني إلَّا حضور موسى الطاغي في غالبية سيرها الروائية ولو بتسميات وأدوارمختلفة حيث إنها أسمته ، حيناً، عيسى وحيناً وائل و...جمعت كل أسئلتي وقرّرت الاتصال بها . رحَّبت بي واتفقنا على موعد قريب.

فتحت لي الباب قائلة " أهلا بك" ووجهها مضاء بابتسامة عريضة ، وتابعت :" سنجلس في مكتبي، لأن الزيارة هي زيارة عمل وليس أيّ أمر آخر."

مشيت وراءها وهي ترتدي عباءة طويلة وواسعة تخفي كل جسدها . جلسنا في المكتب وهي تردد:"أهلاً بك." وأمام تلبكي قالت:

_ هيَّا فلنباشر ، هل قرأت كل الروايات والسير ؟

_ وقرأت ما كتبتِه أنت بعد جلستنا الأخيرة. أجبتها .

ضحكت وقالت :" إذن لديك الكثير من الأسئلة. وأنا جاهزة للمساعدة والإجابة." ثم نادت مُساعدتها في البيت وطلبتْ منها أن تحضِّر لنا "أطيب قهوة." ثم استدركت وقالت:" هل تفضل كأسا من النبيذ أو الوسكي أو..."

كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، والطقس على قليل من الحرارة . تردَّدت قليلاً وسألتها :" هل من الممكن أن أشرب البيرة؟" وأتاني جوابها مشجعاً، إذ قالت مباشرة:" فكرة ممتازة نشرب البيرة." ثم نادت مساعدتها ومازحتها قائلة:" أجّلي القهوة وهاتنا بزجاجتيْ بيرة من الثلّاجة، طبعا مع بعض ما عندنا من مكسَّرات." ثم توجّهت أليَّ وقالت :" لن أسمح لك بأيِّ سؤال قبل أن تبدأ بشرب البيرة."

_ كما تريدين أجبتها، وتابعت :" أعرف أنك ترسمين أيضاً ... " وقبل أن أكْمل سؤالي قالت:

_ وكل اللوحات على جدران بيتي هي من أعمالي.

_ وهل لي أن ألقي نظرة عليها بانتظار البيرة؟ سألت.

_ طبعاً ، هيّا تجوَّل على راحتك، أجابتني من دون أن تترك مقعدها.

نهضت من مقعدي وهممت بدخول الصالون، حيث كل جدرانه مغطّاة باللوحات، وسمعتها تقول:" إبدأ من حيث أنت، فلوحات المكتب هي أيضاً من أعمالي.

لم أجبها وبدأت باستعراض اللوحات بصمت . جلت عليها كلّها واستوقفني التشابه بين تلك اللوحات وما قرأته من كتابات تلك السيدة. تابعت قراءة ما يكسو كل الجدران إلى أن وقع نظري

على لوحة باب مغلق، ومعلّقة في زاوية منفردة . استوقفتني تلك اللوحة، وتذكرت أنها صورة غلاف للسيرة الثانية والتي تحمل عنوان : "هبى في رحلة الجسد" وتساءلت ما الذي جمع بين تلك اللوحة ومضمون السيرة؟ ثم لماذا وُضعت منفردة وكأنها تنتمي إلى عالم آخر. وقفت أمامها للحظات، لكني لم أعلّق تاركاً الأسئلة إلى الجلسة التي ستبدأ بعد لحظات.

كنت شارداً أمام تلك اللوحة ،حين سمعتها تقول:" هل أسكب لك البيرة في الكأس أم تشربها مثلي مباشرة من الزجاجة؟"

_ لن أخالف طقوسك ، وسأشرب مباشرة من القنّينة. أجبتها وأنا أتوجَّه نحو غرفة المكتب.

شربنا الأنخاب، وساد الصمت بيننا للحظات، كنت خلالها أتوقَّع منها أن تسألني إن قرأت كتبها أو أيّ سؤال آخر, لكنَّها لم تسأل فبادرتُ إلى القول:

_ ألا ترغبين في سماع رأيي حول كتاباتك؟

_ أنت حر في أن تعبر عنها أو أن تحتفظ بها لنفسك، أجابتني وهي ترفع زجاجة البيرة نحو فمها.

أربكني جوابها ، وشعرت أن كل أسئلتي تبخَّرت من رأسي . صمتُّ للحظات قليلة لأستعيد ما تبخَّر من ذهني وقلت:

_ لقد قرأت كل كتبك وقرأت ما كتبته بعد زيارتي الأخيرة لك و...

انتظرت منها أن تبادر وتسأل ايَّ سؤال ، لكنها اكتفت بهزَّة رأس بسيطة رمتني في حالة صمت من جديد، وتساءلت : هل أتيتُ لنتبادل الصمت؟ عليَّ أن أبادر حتى ولو أنها تظهر عدم اكتراثها برأيي وانطباعاتي .ووجدت نفسي أجيب عن سؤال افترضت أنها طرحته، وقلت:

_أول انطباع تكوَّن لديَّ بعد قراءة كتبك هوأنَّها تشكل " ساغا" كاملة لحياة الكاتبة ، وأنني وجدت نفسي أمام كاتبة جريئة جداً، وأن كتابتها للسيرة تشكل علامة فارقة وبخاصة في عالمنا العربي. لكنْ لديَّ سؤال، وهو: لماذا استعملت أسم هبى وليس إلهام ؟

لم تفاجأ بالسؤال، فقط ابتسمت وكأنها كانت تنتظره وأجابت بكل هدوء وثقة:

_ هذا هو اسمي الذي كنت أقرأه في عيون الآخرين، وبخاصة في عينيْ أمي.

توقفتْ قليلاً أمام صمتي وتابعتْ: " ليس فقط في عيونهم، ولكن أيضا في كلامهم وسلوكهم." ثم توجّهت بالسؤال أليَّ :" وانت ألا ترى ذلك؟" ووجدت نفسي أجيب من دون تردّد :" طبعاً طبعاً

لأن الإلهام هو هبة في الوقت نفسه. لكن لماذا كتبته بشكل غير مألوف كي لا أقول غير صحيح؟" وأجابتني فوراً:

_ بالنسبة لي كتبته بالشكل الصحيح ،وذلك من عدة أوجه. أولاً من الناحية الجمالية، ولا تنسى أنّني رسّامة ويحرِّكني الحس الأستيتيكي أحياناً، اكثر من الحس اللغويّ ثم إن كتابة هبى بالألف المقصورة يعطي مدى غير موجود في التاء المربوطة التي تقطع النفس وأنا ، في هذا المجال خضعت لطبيعتي العاشقة، وأنت تعرف جيداً ان العشق عطاء من دون حساب ومن دون قيد، ومن دون وقفات تفرضها اللغة أو غيرها من قوانين. في النهاية أنا كائن نرجسيّ أعشق ذاتي، وعشقي لذاتي يفيض حتى يطاول كل الكون. وهذا الفيض هو الذي حدا بي إلى قشط كل الأقنعة عن وجهي وكل كياني، وأهديت سيري إلى القارئ كهبة من دون أن أنتظر أيَّ مقابل . سِيَري لم تكن هدايا مغلّفة بأوراق الهدايا كما هو المألوف بين الناس، بل كانت صافية وعارية ، يعني من دون emballage ولهذا السبب اعتبرت جريئة، لأنها غير مألوفة في عالمنا العربي أو لأنها نادرة الوجود.

هنا، وجدت نفسي أطرح أول سؤال خطر في بالي ووجدتني أقول :

_ وهل فعلت ذلك للتميّز و...

وقبل أن أنهي سؤالي، أجابت:

_ كنت أظنك أفطن من ذلك . ألا تدرك أن الهبى، وبخاصة كما أكتب أنا الكلمة ، هي بعيدة كل البعد عن لغة السوق، وأنها عطاء مجّاني ناتج عن فيض وليس عن عملية حسابية؟ حين كتبت السِيَر كنت أقرأ ذاتي غير آبهة بردّات فعل القرّاء وبخاصة المتلصّصين منهم. ولهذا السبب قلت مرّة إنني، في كتاباتي، كائن عارٍ داخل غرفة من زجاج مصفّح لا تخرقه رصاصة أي لص أو متلصّص.

توقّفت قليلاً عن الكلام، ولزت بالصمت قبل أن تتوجّه اليَّ لتسألني:

_ هل عرفت الآن لماذا استعملت إسم هبى في سِيَري؟ وأتى جوابي المباشر:

_ لم أعرف فقط بل اقتنعت.

ضحكت ، رفعت زجاجة البيرة، وقالت:" بصحتك."

رفعت زجاجتي وشربت جرعة ، وقبل أن أعيد الزجاجة إلى مكانها قلت:" ولوحاتك تشبه كتاباتك ، إنها متفلّتة من أي قيود." وأتاني جوابها السريع :" تقصد أنها غيرمهنية، وهذا صحيح. فأنا هاوية في الرسم ولست ممتهنة للكار مع أنني أقمت معرضين كبيرين، وبعت عدداً لا بأس به من اللوحات و... كنت أرسم وأكتب في الوقت نفسه ، لكن في النهاية استهوتني الكتابة أكثر فأهملت الرسم وتفرّغت للكتابة.

صمتت قليلاً ثم قالت كأنها قرأت السؤال الذي كنت أهم بطرحه :"لم أنجح في الرسم صدق التعبير عن ذاتي كما في الكتابة ، ربما يعود ذلك إلى جهلي بتقنيات الرسم . لكن كنت أشعر أحياناً أن بعض كلماتي وأفكاري كانت بحاجة لأن تلوّن." صمتت قليلاً وهمّت بالمتابعة، فسارعت إلى طرح سؤالي المحوري، والذي كنت مهتماً بسماع قولها حوله. قلت:

_ في رواياتك وجود طاغٍ للمرحوم موسى حتى ولو أنك ألبستيه تسميات مختلفة و... وقبلً أن أتابع، أجابتني:

_ موسى كان رفيق الدرب وفي كل تعرّجاتها وكان حبيبا غالياً و...

_ ولكنك أقمت جنازته مع غيره في روايتك " أيهما هو؟"

_ كنت أريد أن أعاقبه على ما قاله لي مرّة .

وهنا سارعت إلى السؤال:" وهل صدّقت ما قاله لك بأن علاقته بك هي جسدية محض؟

_ سواءً صدّقت أم لم أصدّق، معاملتي له باتت بعد ذلك القول الذي صدر عنه بالذات، لم تعد كما كانت من قبل.

_ لكني كنت ألاحظ أنه يكنّ لك احتراماً كبيراً، ويميّزك عن كل الأخريات.

_ أعرف ذلك، وكنت أتجاهل ما أعرف كي أرغمه على الاعتذار، لكنه كان مكابراً .

صمتت قليلاً وتابعت وهي تهز برأسها "... مكابر على من!!!"

_ لكنّ صداقتكما استمرّت. وهذا واضح في ما كتبته عنه وعن مرضه ووفاته و...

_ لأنه وفي أواخر أيامه اعترف لي صمتاً بكذبه.

قالت ذلك وشرد نظرها في الأفق الفسيح الذي يطل عليه مكتبها. تركتها تشرد، لأنني توقّعت أنها تستعيد شيئاً ما من الذاكرة. صدق توقعي، لأنها ابتسمت وقالت كأنها تكلم نفسها:" قرأت ذلك في عينيه، وشعرت به بتمسّكه بيدي طول الطريق وهو ينظر في وجهي ... كاد أن يعترف بكذبه الذي بسببه دفنته في تلك الرواية، لكنه اكتفى بتمتمة خفيضة ومتقطعة انستني كل تجبري، قال:" اعلمي أنك أغلى ما عندي." قالها وهو يعتصر كفي .

وأمام هذا البوح الصادق، سارعت إلى السؤال:

_ لماذا لم تعيشا معا؟

واكتفت بالقول :" ظروفٌ أو قدر" ، قالتها وهي تهزّ برأسها .

بعد قليل ومن دون أن أتوجه إليها بأي سؤال، قالت:

_ تركته ليتزوج وينجب و...

قالت ذلك ولم تتابع، لكني سارعت إلى السؤال:

_ هل أزعجك زواجه و...

وقبل أن أتابع سارعت إلى القول وبكل هدوء:

_ لا، أبدا، فزواجه لم يغيّر شيئاً من طبيعة علاقتنا التي كانت خارج كل الأطر المسنون عنها في العلاقات العادية التي تندرج في قوانين إجتماعية ضيّقة. لقد استمرت علاقتنا بعد زواجه كما قبله والمكابرة التي كانت لقاءاتنا نحن الأثنين في كل لقاآتنا بعد زواجه ليس لها أية علاقة بزواجه، بل بتلك الجمله التي قالها في ساعة غفلة ظناً منه أنه يستطيع أن يروّض كبريائي . ظنّه كان في غير محلّه، وهذا ما عبّر عنه صمتاً ولكن بعد فوات الأوان ، فالمرض كان قد أنهكه، ثم كان الرحيل لينقله إلى حيّز يليق به في القلب والذاكرة.

صمتتْ وغرقتْ في ذاتها، واحترمتُ صمتها المعبّر. لكن سرعان ما تبادر إلى ذهني سؤال لم أتردّد في طرحه عليها :

_ أعرف أنه كان بين سارتر وسيمون دي بوفوار مراسلات! أليس من مراسلات بينك وبين موسى؟

ابتسمت وقالت لكلٍّ من العلاقتين خصوصيتها , لم نكن بحاجة إلى مراسلات ، علاقتنا كانت مباشرة و...

هنا سارعت إلى القول:

_ لكن في بعض رواياتك تذكرين بعض رسائل موسى أليك.

_ كانت كلّها قصاصات صغيرة لا تتمتّع بصفة المراسلة وبخاصة أنني لم أجب عليها وغالباً ما كان يسلّمني إيّاها باليد.

قالت ذلك وفتحتْ دُرجاً في مكتبها وأخرجت منه مغلّفاً صغيراً وقالت وهي تسلّمني المغلّف:" هذه هي كل مراسلاته."

_ هل أفتحه وأقرأ؟ سألتها.

_ لقد قرأتَ الكثير منها في كتبي ، لكن قيمتها تعود إلى كونها بخط يده، ولهذا السبب أحتفظ بها ، إنها ما بقي منه حياً نابضا بعد أن غاب أو رحل إلى...

قالت ذلك وصمتت وقد ارتسم على وجهها سؤال كبير.

تركتها لتساؤلاتها وفتحت المغلف : قصاصات ورق صغيرة ومبعثرة .استفدت من شرودها وقرأت :

يجد" مانهاتن أجمل ما في بلادي وأنا لست شوفينياً"" مانهاتن أجمل ما في عيني وأنا لست نرجسياً" ...

" يتحدثون عن طيور أيلول ونحن في نيسان. كم هو عتيق شهر أيلول!"

" كنت أحضرت لك هديّة أطفال، اليوم كسرتها بعد أن عرفت، بفضلك، أنني لم أعد طفلاً. للأطفال وحدهم الحق بالحلم، قلتِ : استفق."

هل كان ينبغي أن أقسم لك حتى تنظرين إلي

"ماذا فعلت بي ذاكرتك؟ واذ تنظرين إليّ أصير شيئا آخر بفعل القسم فتنصرفين عني . كتبوا على ظهورنا غداً."

" تعب الرحالة من الترحال، ذات زمان، إلاّ أن الرحالة لم يجد مستقرّاً . جميع الأمكنة كانت مشغولة . فقرّر أن ينتظر.

والترحال أخف عناءً من الانتظار ، تماماً كما جاء في الكتب." " يكتب بارت :" المرأة مقيمة، الرجل رحّالة. المرأة مخلصة (إنها تنتظر) الرجل يمضي (يبحر ويصطاد)..."

"لم يكن بالإمكان غير ما كان

غير أنه، يا سيدتي، كان بالإمكان غير ما كان، تلك هي المسألة. وإن لم تفهمي راجعي قولاً لفاليري: en philosiphie il est essentiel de ne pas comprendre.

إنه رجعي هذا الفاليري، فلا تصدقيه، ولذا لم أصادف بعد كاتباً يشرح نفسه بنفسه ما كتب."

" أراني أتكرّر كما تا ريخ هذا المشرق."

أرجعت القصاصات إلى مكانها ، وأعدت المغلف إلى السيدة إلهام التي استلمته مني وهي تنظر في عيني محاولة استفسار التساؤل الذي كان يرتسم على وجهي. لم تقل شيئاً أعادت المغلّف إلى الدرج ولاذت بالصمت فما كان مني إلاّ أن نطقت بأول فكرة تكوّنت لدي بعد القراءة:

_ لقد ظلمتِه كثيراً.

لم تجبني مباشرة، هزّت برأسها للحظات ،ثم قالت :

_ لم أظلمه بقدر ما ظلمني برحيله الذي...

لم تكمل جملتها، وصمتنا معاً للحظات قبل أن تقول من جديد:

_ رحيله كان خسارة كبيرة لي عاطفياً وفكرياً... كان سندي الفكري ... كان وسادتي الفكرية التي أسند رأسي عليها، وأنام ملء جفوني غير آبهة بكل ما أسمعه أحيانا من نقد وغيره، حين أكتب شيئاً ما ويكون موسى قد اطّلع عليه قبل نشره. كنت ، حين كان يقرأ لي موسى نصاً ، رواية أو بحثاً أو ... ويهز برأسه ويبتسم كمن نال الجائزة الكبرى، فأنشره ورأسي على وسادة من حرير. لم يكن يتدخّل في أموري الكتابية، بل كان أحياناً يحسدني لأنّني " وجدت قولي الخاص" كما كان يقول لي.

هنا سارعتُ إلى السؤال:

_ وهل تشعرين باليتم بعده في هذا المجال؟

_ ليس باليتم، والأصح القول إنني أشعر بالوحدة.

صمتت قليلاً ثم تابعت :

_ لكن الحياة معطاءة، ومنحتني الصديقة يسرى التي تواكبني وتشاركني همومي الكتابية وأنا مرتاحة جداً لحسِّها النقدي والجمالي في آن. نلتقي ونتناقش فيما نكتب، ونصحّح و... من دون تردّد كأنّنا نكتب معاً نصاً واحداً. ودائماً نتذكر موسى الذي غيابه يكون ثالثنا.

صمتت قليلا، ثم تابعت كمن يكلّم نفسه:

أفقدني غيابه أفقاً دام عامراً بالضوء إلى أن انكفأ . منذ ذلك، حاصرتني الوحدة كما لم تكن يوماً... ليس غيابه وحده بل غياب كل الآخرين الذين كانوا حديقة بشرية مضيئة. غيابهم شكّل فجوة وجوديّة أحياناً أنجح في الخروج منها وأحياناً أخيب . يتعثّر الاستبدال حين أفكر أن الحياة ينبغي أن تستمر... لكن أحياناً كثيرة أشعر أن الحياة عديمة اللون والذائقة، بيضاء، بلا روح... وفي أحيان أخرى أمسك بطرف الخيط، فيبدو لي واهياً. وأهمّ بلقاء أحدهم ممن ينيرون ما تبقى من حديقة الوجود . أحياناً أنجح وألتقي يسرى أو سعاد أو مي أو ... لكن غالبا ما تصاب قدماي بالشلل فأمكث في وحدتي التي باتت بيتي .إنها حيّز الأمان الذي يغمرني أحيانا لأنها لا تخونني فهي دائماً تنتظرني وترحِّب بي حين أعود إليها هي ملاذ آمن مطمئن . ومع ذلك فهي رحبة الصّدر وترحِّب بكل من أستضيفه إليها . أمكث في حضنها وأستحضر من رحل وأنسق اللقاءات وتتنوع الجلسات؛ أحياناً تحضر طاولة البوكر، وأرى فاطمة وموسى وعبد ونزيه وعصام و... وتعمراللعبة حتى الصباح. وأحياناً أخرى تكون الجلسة فكرية فيحضر موسى وحسن قبيسي ومهدي عامل ويسرى وعادل و... ويحتدم النقاش، ويدلي كل بدلوه قبل أن أستودعهم وأقفل الباب وراءهم لأجلس في حضن وحدتي الرحب...وأعود وأخرج من جديد لأستعيد تلك السهرات الصاخبة والمتنوعة حيث كنا نشرب ونرقص ونتمايل ونعشق ونتخاصم و....وتكرُّ الوجوه

أمامي من رجال ونساء ذلك الزمن الذي كنا محوره ومحركيه حيثما أردنا. وجوه كثيرة تكرُّ أمامي ، منها من هو على قيد الحياة ومنها من رحل... صعب هذا التأرجح! لكنْ في كل الأحوال قد تكون الوحدة في أحيان كثيرة ملاذا آمنا ومطمئناً.

صمتت، وحرت بأمري كيف أتابع الحوار معها، ولكنْ سرعان ما خطر ببالي أن أسألها عن مصير الحب بعد غياب المحبوب، وأتى سؤالي على الشكل البسيط التالي:

_ وهل ينتهي الحب مع غياب ...

لم تتركني أتابع وأجابت:

_ الحب الحقيقي لا ينتهي حتى ولو غيّب الموت من تحب.

صمتت للحظات وهي تنظر في الأفق، ثم تابعت كأنها تكلّم نفسها:

_ الموت يغيّب المساوئ، ويحافظ على الوجه البهي ولهذا السبب الحب يكابد في غياب الآخر... هنا تجد أن الكتابة خير منقذ فتبحر فيها، وتكتشف أنها لا تؤتي ثمارها إلا إذا كان الغائب موضوعها، واستمرارها هو وجه لاستمرار العلاقة التي أوقفها الموت.

شردت قليلاً ثم تابعت وهي تهزّ برأسها :

_ ... لكنْ ألف موت يدوم عاجزاً عن إيقافها ذهنياً.

هنا، فاجأني سؤال لم أتردّد في طرحه عليها، قلت:

_ ألا تستمرّ الحياة بكل معطياتها بعد فقدان الحبيب...؟ ابتسمت وقالت:

_ طبعاً تستمرّ، لأن الذاكرة من مقوّماتها الأساسية .

قالت ذلك وصمتت، ثمّ ابتسمت وسألتني:

_ هل أنت عاشق؟

فاجأني السؤال، لا بل أربكني، فابتسمت ولم أجب، لكنها تابعت كما لو أنها لم تسألني لتسمع جوابي بل لتوضح فكرتها:

_ أكتشف الآن وبعد مرور كل هذه السنين، أنني كائن عاشق بامتياز و...

لم أتركها تتابع وسارعت إلى السؤال:

_ هل ما زلت تعشقينه؟

_ لا ، أجابتني بسرعة وتابعت : الحب شيء والعشق شيء آخر. الحب لا يغيّبه الغياب أما العشق فهو حالات متنقّلة، ولا تكتمل العلاقة إلّا إذا اجتمع العشق مع الحب وهي حالات نادرة جداً، وإذا اجتمعا فلفترات قصيرة .

_ ماذا تقصدين ؟ سألتها. وأجابت بسرعة:

_ يجتمع الحب والعشق بين الرجل والإنسى حين تنمحي عندهما الهوامات وهما يمارسان الحب. ولهذا السبب، تزداد حالات الطلاق في أيامنا هذه .

_ ماذا تقصدين ؟

_ أقصد أن الوعي بالذات عند الرجل والإنسى قد نما مع تقدُّم المعرفة والعلم ، هذا من جهة، ومن جهة ثانية خفّت وطأة التقاليد والأعراف. وقد تم ذلك بسرعة . أذكر أنني ، حين طلبت الطلاق من زوجي الأول في بداية السبعينيات من القرن الماضي، استهجن الأمر كثيراً ، أما اليوم فقد بات الطلاق أمراً عادياً جداً.

_ كما أن العلاقات خارج الزواج باتت مباحة وحتى علنية. قلت لأدعم تحليلها .

صمتت من جديد ثم تابعت:

_ كلّها علاقات عشقيّة . وغالباً ما ينخدع العاشقان ويذهبان إلى الزواج ثم يكتشفان الحقيقة الواقعيّة، وغالباً ما يكون ذلك بعد أن يتورّطان في إنجاب ولد أو أكثر. وتبدأ رحلة الطلاق الذي يزداد كل يوم.

_ ألا يلتقي الحب والعشق أبداً؟ سألتها .

_ قد يلتقيان ، أجابت بسرعة، وتابعت: لكنّها حالات نادرة، لأنّ في العشق تحب الصورة التي في ذهنك عن الشخص الآخر بينما الحب هو أن تقبل الآخر كما هو ، ولهذا السبب، نادراً ما يجتمع الحب والعشق ، وإذا ما اجتمعا فلفتراتٍ قصيرة جداً. وهنا سأجيبك على سؤال يجول في رأسك ولم تطرحه : أنا عشقت موسى لفترة، لكنّني أحببته كل الأوقات ولهذا السبب علاقتي به لم تنتهِ لا في حياته ولا بعد رحيله على الرغم من تحوّلها.

هنا سارعت إلى السؤال ." ومتي انتهى عشقك له؟"

_ حين كذب على نفسه ، أجابت .

هنا صمت ولم أعد أدري كيف اتابع الحديث معها ، لكنّها أنقذتني من ارتباكي حيث قالت:

_ كنت أتوقع منه أن يعترف بكذبته يوم يرثيني، لكنَّ الموت استعجله قبلي ، وأتى اعترافه لي بطريقة مواربة ، كعادته بالبوح، قبل رحيله بفترة قصيرة كما سبق وقلت لك.

وبعد صمت قصير، خطر ببالي سؤال حول العلاقات الحب والعشق بين الجنس الواحد كما هو واقع الحال في أيامنا هذه. وأتى جوابها مباشراً وكأنها كانت تفكّر بالموضوع.

_ ألم تقرأ روايتي حول الموضوع ؟

_ تقصدين " أنا هي أنتِ"؟ سألتها .

_ يبدو أن هذه الرواية كانت الأولى والفريدة حول الموضوع في أدبنا العربي المعاصر ولهذا السبب شكّلت مادة لأطروحة دكتوراه لطالبة عربية تدرس في أستراليا وهي التي لفتت نظري حول الموضوع، وقد قالت لي إنها وبعد بحث طويل في عالم الأدب العربي المعاصر لم تجد سوى روايتي هذه. أظن أنك قرأتها وتعرف رأيي المحايد ومن دون أي تقييم أخلاقي أو ديني حول الموضوع ولستُ بحاجة إلى أن أكرّره الآن معك.

أسكتني ردّها وحرت بأمري هل أنهي الحوار معها أو أتابع، وبلحظة خطر ببالي أن ننتقل إلى الكلام حول لوحاتها . لم أتردّد وسألتها:

_ هل هناك من تناغم بين ما تكتبين وما ترسمين ؟ لوحاتك معبّرة جداً وكأنها لوحات ه فكرية أكثر مما هي تشكيلية.

_ صدقت، قالت وتابعت: لدي بعض اللوحات التشكيلية ولكن الغالبية هي تجسيدات لأفكار محدّدة ، آمل أن أكون قد نجحت في التعبير عنها.

صمتت قليلا ثمّ تابعت:" كلُ مشاهد يُسقط على اللوحة ما يتجاوب مع همومه ودواخله. المهم أنني قمت بما أرغب به من دون أن أفكر في احتمالات النجاح أو الفشل أو الشهرة أو ...."

_ هل لي بسؤال بعد؟

_ تفضّل ، أجابتني من دون تردّد.

_ هناك لوحة مميّزة بين لوحاتك وقد لاحظت أنك تضعينها وحدها في ركن خاص و...

وقبل أن أتابع قالت:

_ تقصد لوحة الباب ؟ أعرف ذلك ، إنها لوحتي المفضّلة وفي المعارض كنت أكتب تحتها "مباعة" كي لا يشتريها أحد. حتى موسى طلبها مني ورفضت. إنها الباب المغلق على المجهول، إنها باب أيلول و...

وقبل أن تتابع قلت:

_ ولكنك وضعتها غلافا لسيرتك الثانية :"هبى في رحلة الجسد". فسارعت إلى القول:

_ وستكون غلافاً لروايتي الأخيرة التي نكتبها معاً الآن. وما وضعها كغلاف للسيرة الثانية ألاّ آلية استشراف لم تتَّضح لي إلّا مؤخراً. في تلك السيرة خرجت من الباب ولم أتبين معانيه جيداً ومنذ ذلك الوقت ورصيف ذلك الباب مقفر كأنه لا ينتظر غيري! ثم إن الباب ليس مقفلاً تماماً هو مغلق كأنه يتأهب لأن يُفتح حين يطل أحدهم على أول الرصيف أو بالأحرى حين أَطلُّ على أول الرصيف. إنه، باختصار: باب الرحلة وباب الرحيل أو باب الحضور وباب الغياب كما يفضّل البعض وهو يمتلك قوتين لا

يضاهيه فيهما أحد وهما قوة الدفع وقوة الجذب. لكن من أين وإلى أين فهذا هو السؤال!!! نخرج منه بذاكرة عذراء وندخله بعد أن نرمي بكل ذاكرتنا على الرصيف لتصبح ملكاً لمن يخرج منه بعدنا.

قالت ذلك، وغرقتْ في ذاتها ،ولم يبقَ أمامي إلّا سؤال واحد، ومن دون تردّد طرحته عليها:

_ هل أنت مؤمنة؟

ومن دون تردّد أيضا أجابتني:

_ لا أدري. ولم أحسد أحداً بحياتي إلّا من هو مؤمن بكلّ قناعة. لو كنت مؤمنة حقيقة لما أقلقني الباب، ولما رسمته واحتفظت به ولما كان يعني لي كل ما يعنيه.

صمتت قليلا وسألتني :

_ هل أنت تعلم من أين أتيت وإلى أين ستذهب؟ كلّ ما نعلمه أنّنا تكوّنا من خلال علاقة جنسية محض حيوانية وبيولوجية وخرجنا أبرياء من أرحام أمهاتنا . هذا ما يقوله العلم والواقع ، عدا ذلك يبقى الأمر لغزاً .

هنا سارعت إلى سؤالها حول الله وما وعدت به الأديان ، لكنّها قلبت شفتها السفلى وحرّكت يديها بعلامة استفهام وقالت :

_ لست واثقة إلّا من أمر واحد وهو أنّني لا أدري.

قالت ذلك وصمتت لدقائق قبل أن تنظر إلى الخلف وتنادي:" ريكو ، ريكو" وفجاة سمعت بابا يُفتح داخل البيت ورأيت كلبها الصغير يهرول نحوها. حين دنا منها رفعته إلى حضنها، وأخذت تداعب وبره الأبيض النظيف ،وهي تردّد اسمه. فهمت في تلك اللحظة ،أن الكلام بيننا انتهى، فنهضت من مكاني، لملمت أوراقي، استأذنتها وانصرفت.

انتهى يوم عيد ميلاد يسرى في 2019/6/19

بعض مؤلفات الكاتبة

- إلى هبى
(سيرة أولى) ١٩٩١
دار الفارابي.

-هبى في رحلة الجسد
(سيرة ثانية) ١٩٩٤
مختارات ش م م

- صوت الناي
أو
سيرة مكان
رواية ١٩٩٥
مختارات ش م م

- نحو تحرير المرأة في لبنان ...
١٩٩٦
مختارات ش م م

- أنا هي أنتِ
رواية ٢٠٠٠
رياض الريس للكتب والنشر.

- حين كنت رجلاً
رواية ٢٠٠٢
رياض الريس للكتب والنشر.

- بالإذن من سفر التكوين.
رواية ٢٠٠٥
رياض الريس للكتب والنشر.

- أيهما هو
رواية ٢٠٠٣
رياض الريس للكتب والنشر.

- الصفحة الثانية
رواية ٢٠٠٨
رياض الريس للكتب والنشر.

- تركتُ الهاتف يرن
رواية ٢٠٠٩
رياض الريس للكتب والنشر.

- رحلت والدتي بقيت أمي
رواية ٢٠١٢
رياض الريس للكتب والنشر.

- صورة على هاتف جوّال
رواية ٢٠١٥
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

- ترجمات ودراسات عديدة منشورة في كتب ومجلات مختلفة.

أنجز هذا الكتاب في ١٧ أيلول ٢٠١٩
في مطابع
Haber Printing s.a.r.l.
Printing & Packaging